آيات في الآفاق

تدبر في أماكن ذكرت في القرآن الكريم

تأليف

حازم عوض

الكتاب: آيات في الآفاق.. تدبر في أماكن ذُكرت في القرآن الكريم

الكاتب: حازم عوض

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عوض ، حازم

آيات في الآفاق.. تدبر في أماكن ذُكرت في القرآن الكريم / حازم عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٢١ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٦٠٥ / ٢٠٢٠

آيات في الآفاق

تدبر في أماكن ذُكرت في القرآن الكريم

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣]

على سبيل التقديم

المكان في القرآن

قال تعالى يدعونا إلى أن نتدبر آياته "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"، فآيات الله المحكمات تدعونا للتدبر، وتقص القصص لنؤمن: "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون" فإن لذكر القصص تأثيرًا عظيمًا في نفوس المخاطَبين؛ لذا تجد القرآن الكريم والسنة النبوية مليئَين بالقصص، وقصص القرآن الكريم أحسن القصص؛ قال تعالى: ﴿ نحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف: ٣]، والهدف منه أخذ العبرة والعظة؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لذا فلا بدَّ من استخدام القصة في الحياة الدعوية؛ فلها أهمية كبيرة وفيها ثمار وفوائد كثيرة للدعوة إلى الله تعالى من خلالها.

ولا بد للقصص من أماكن تدور فيها وتحتوي شخصياتها وتكون إطارا لأحداثها، والمكان بوصفه حقيقة كونية يدركها الإنسان خلال حياته اليومية لم يقف عند كونه مدركًا بصريًّا ساكنًا، بل شغل المفكرين والفلاسفة، وعلى الرغم من غلبة صفة السكون والاستاتيكية على المكان

عند هؤلاء في قديم الزمان؛ إلا أن الفن عمومًا والسردي منه بخاصة منح المكان فعالية واضحة، وخاصة في عصرنا الحاضر، ومثلما الزمن ركن أساسي في القصة؛ فالمكان كذلك لاكتمال الصورة. وينقسم المكان إلى نوعين هما:

- المكان الجغرافي: وهو المسرح المقيد بالحدود الجغرافية بربطه باسم تلك المنطقة بعينها مما يعطي بعداً تاريخياً.
- المكان الخلفي أو المفتوح: هو المكان أو الحيز غير المحصور بحدود جغرافية بل هو واسع المدلول بحيث تقوم اللغة من خلال مفرداتها بعرضه وتصويره بعبارات وألفاظ عامة كالطريق والجبل والبيت ....الخ

والتدبر في القرآن الكريم يوضح أنه يحوي كثيرًا من الآيات التي تتحدث عن الأماكن، سواء ما ينطبق عليه مصطلح الحيز الجغرافي في العمل السردي الذي يعني إعطاء المكان حدودًا جغرافية بعينها، فلا ينطلق الكاتب خارج هذا الحيز، بل يتقيد بعاداته وتقاليده وظلاله التي يرسمها له منذ البداية، وعلى غراره وجدت في القرآن، ولا أدل على ذلك من تسمية بعض سور القرآن بأسماء أمكنة تاريخية بعينها، مثل: الكهف، الطور، الأحقاف، الحجر، الحجرات، سبأ. أو ما ينطبق عليه مسمى الحيز المفتوح، غير المحصور بحدود، والذي يتم عرضه من خلال اللغة ومفرداتها كالحديث عن السماء والأرض والجبال والجنة.

جمالية المكان

الإعجاز البياني أبرز صفات وسمات جمالية المكان في القرآن؛ فمنهج القرآن في عرض آيات المكان يأتي متمايزا من ناحية البناء البياني الذي يعد المدخل الرئيس للتذوق الجمالي والإحساس بالجمال الذي يعمل على استجاشة بواعث الاستمتاع بالمظاهر الكونية التي تصورها آيات الجمال.

وأهم ما يميز جمالية التعبير في القرآن: عناصر الأداء التعبيري المناسب والذي يشمل التعبير الفني بألوانه وأنواعه وفق الدواعي النفسية والاجتماعية والإعجازية وما يحويه من إيجاز وتصوير بالكلمة المعبرة والتركيب الموحي والآية أو الآيات المصورة في مشاهد حية ولوحات شاخصة وأحوال نفسية وذهنية.

والمكان في القرآن الكريم لم يمثل عنصرًا أساسيًا من عناصر السرد القرآني؛ وذلك لأن القرآن لا يهدف إلى تقديم عمل فني، بقدر ما يهدف إلى بيان العقائد والشرائع وسوق العبر والتذكرة.. يترتب على ذلك أن المكان أو أحد تفاصيله عندما يأتي ذكره في القرآن يفسح المجال أمام الخيال لكي يكمل بقية التفاصيل والعناصر المتعلقة بالمكان، ومع ذلك فإن المكان في القرآن الكريم قد أتى على هذا النحو إلا أنه لم يغفله تماما، بل هناك إشارات تحفز المتأمل وتدفعه دفعًا نحو الالتفات إليها وتدبرها، فهناك أماكن بعينها أقسم الله سبحانه وتعالى بها، مثل قوله تعالى: {لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد}.

وأيضًا فإن القرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد فإنه في كثير من المواضع ذكر المكان بمفهومه العام (المطلق)، فذكر سماوات وأراضين وجنان وحدائق ذات بهجة، وألحق هذه الأماكن بأوصاف تلفت عين انتباه القارئ إلى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى في خلق هذه الأماكن وتحويلها من حالة إلى حالة، فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: {أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون} (النمل: ٦٠).

وإذا عرفنا معنى كلمة بهجة في المعاجم، عرفنا سر الجمال في هذه الكلمة التي وصف بها القرآن هذه الحدائق التي تنبت على أثر نزول الماء من السماء. واللفتة القرآنية الجمالية بلا شك لفتة حضارية ذات مضمون جمالي تنبه الوجدان إلى اهتمام القرآن بها في أزمنة متقادمة وبلد قاحل غير ذي زرع. وهي بالتعبير القرآني ذات (بهجة)، أي أنها: نضرة بهيجة فرحة حية، تبهج العين برؤيتها والأذن بتغريد طيرها، والأنف بعبير أزهارها، واليد بلمس ثمارها، فيها من الألوان والأحجام والأنواع ما لا تبدعها لوحة واحدة جميلة تحس بها الوجدان والمشاعر، هي أقرب أن تكون طبيعية تروى بماء الأمطار.

المكان المبهم

يغلب على القصص القرآنية إبهام المكان؛ فلم يذكر اسم المكان إلا إذا كانت هناك حاجة له ويخدم هدف القصة الذي هو هدف السورة المتواجد فيها ذلك المقطع من القصة، وهنا نشير إلى أن القصة القرآنية

ليس هدفها سرد الحدث التاريخي على هيئته، بل تقوم بتوظيفه فيما يخدم هدف الدعوة؛ لذلك فالبحث الطائل الذي عقده المفسرون حول مكان كهف فتية أهل الكهف أو سفينة نوح أو غيرها، لا يخدم القصة القرآنية ولا القرآن ولا المتلقي في شيء بقدر ما يصرفه عن المطلوب من القصة القرآنية (العظة والعبرة) ولو كان اسم المكان أو الشخصية أو أي شيء آخر مهما لأورده القرآن كما أورد بعضا من ذلك.

المهم أن الاسم المبهم يسهم في إضفاء العمومية على الحدث ففي قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل ١١٢) رغم أن المفسرين أجمعوا على أن القرية التي نزلت فيها هذه الآية هي مكة إلا أن الحكم فيه ينطبق على كل قرية تكفر بأنعم ربها سواء كانت مكة أو غيرها فهي تدخل في عموم اللفظ لا خصوص السبب ولم ترتبط باسم مكة بذاتها، إلى جانب أن عبارة (ضرب الله مثلاً) تجعلها في عموميتها بما نعرف من عمومية المثل لا خصوصيته سواءُ ذكر اسم مكة أو أبهم. ومثل ذلك أصحاب القرية في سورة يس والأماكن في قصة العبد الصالح مع موسى، وكما في سورة الكهف حيث نجد (القرية، الجدار، السفينة.. الخ).

والكتاب الذي تقدمه اليوم "وكالة الصحافة العربية – ناشرون" بعنوان "آيات في الآفاق.. تدبر في الأماكن المذكورة في القرآن الكريم" يضم مقالات متنوعة لطائفة من الكتاب والباحثين تتخذ من موضوع

المكان في القرآن الكريم محورا لها، ويمكن تقسيمها إلى محورين فرعيين، أحدهما يعالج المكان بمفهومه المغلق والآخر يعالجه بحيزه المفتوح، فتتحدث المقالات على سبيل المثال عن أصحاب السبت والأخدود وأهل الكهف، كما تتناول مقالات وأبحاث أخرى أماكن اهتم بها القرآن ولها مكانة وقداسة في الإسلام، وأولها مكة والمدينة، ثم بيت المقدس ومصر بعامة وسيناء بخاصة.

ورأينا أن الضرورة وتحديد المفاهيم تلزمنا بسياق محدد أثر في ترتيب الفصول الخمسة عشر المكونة للكتاب، فلزم أن نبدأ بتوضيح السبب في تفرقة القرآن بلفظي قرية ومدينة، فقد استخدمهما للتعبير المبهم عن بعض الأماكن، كما تكشف الدراسة الأولى في الكتاب.

وأهمية ذلك ترجع إلى إن تسميات المدن والقرى في القرآن الكريم من الأمور التي قد يحيط بها فهم مغلوط في أحيان كثير يقود لتفسيرات شاذة وغير متفقة مع القاعدة الذهبية التي تنفي الترادف في كتاب الله، الذي اعتمد على "طبيعة السكان" لتحديد الفرق، عندما يكون السكان بطبيعة واحدة ودون اختلاف فهي قرية، أما إذا كان هناك تنوع واختلاف تصبح مدينة

والمدينة عادة يحيط بها عدد من القرى، وكانت المدن في الماضي تحاط بسور وأبواب تغلق ليلاً أمام الداخلين إليها، وهذا لم تتميز به القرى لأن أهلها يعرفون بعضهم ويُعرفُ الأغراب بينهم بسهولة، وهذا التعريف ينطبق على المدينة المنورة مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يسكن فيها أناس من ملل وأعراق مختلفة؛ فمنهم اليهود ومنهم الأوس والخزرج والمهاجرون من قريش وغيرهم من الناس؛ فكانت مختلفة عن مكة التي يسود

فيها قريش وهي بلدتهم ويتبع فيها دين واحد وهو عبادة الأصنام.

ونفس الضرورة ألزمتنا بأن نثني بفصل عن الجبال باعتبارها أماكن، ولم يتعامل القرآن الكريم معها بمعناها الجغرافي أو بمفهومها الطبيعي المتعارف عليه بين الناس، بل تحدث عن إعجازها، وفائدتها

وبمناسبة الإعجاز والقرآن الكريم كتاب معجز بيانيا وعلميا، فقد عمدنا إلى اختيار مقالات عن بعض الأماكن الوارد ذكرها في القرآن الكريم تمشيا مع سياق الكتاب، وفي نفس الوقت تؤكد على الجانب الإعجازي للقرآن الكريم، لذا تعمدنا أن نثبت دراسة عن الإعجاز العددي في الآيات التي ورد بها ذكر مصر في القرآن الكريم.

هذا وسوف يدرك القارىء اللبيب وجود اختلافات في طرق الصياغة ومنهج التناول بل ومساحة الفصل نفسه، بين فصل وآخر من الفصول المكونة لهذا الكتاب، وبالطبع لن يغيب عن فطنة قارئنا أن مرد ذلك الاختلاف يرجع لاختلاف الكتاب فكل فصل عبارة عن مقالة أو بحث منفصل عما يليه أو ما يسبقه، ويجمع ذلك كله سياق واحد هو "المكان في القرآن الكريم"، فالاختلاف إذن في الأساليب ومناهج البحث أمر بديهي، المهم أن المقالات كلها ذات قيمة وفائدة، وراعينا عند اختيارها أن تتكامل معا لترسم صورة شاملة وكاملة لمفهوم المكان القرآني، ولدلالته.

حازم عوض

دَلَالَة التَّسْمِيةُ لِلْمدَائِنِ وَالقُرَى فِيْ التَّعْبِيْرِ القُرْآنِيّ

إن تسميات المدن والقرى في القرآن الكريم من الأمور التي قد يحيط بها فهم مغلوط في أحيان كثير يقود لتفسيرات شاذة وغير متفقة مع القاعدة الذهبية التي تنفي الترادف في كتاب الله، وسأبحث تحديداً في تسمية "مدينة الغلامين اليتيمين" في سورة الكهف، و"قرية إخوة يوسف" التي استشهدوا بها عند قدومهم على أبيهم وبالتالي سنخرج بتعريف للمدينة والقرية في التعبير القرآني.

أوجه الالتباس:

يسود اعتقاد بأن القرآن الكريم يبدل بين التسميتين (مدينة، قرية) لنفس الموضع وأنهما تسميتان مترادفتان وسأستعرض بعض أقوال المفسرين في موضعين:

الموضع الأول: قرية إخوة يوسف

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) سورة يوسف(٨٢)

جاء في تفسير القرطبي رحمه الله:

قال أبو جعفر: يقول: وإن كنت متهما لنا، لا تصدقنا على ما نقول من أن ابنك سرق: (فاسأل القرية التي كنا فيها)، وهي مصر، يقول: سل

من فيها من أهلها (والعير التي أقبلنا فيها)، وهي القافلة التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبر ابنك وحقيقة ما أخبرناك عنه من سرقته، فإنك تخبر [ص: ٢١٣] مصداق ذلك (وإنا لصادقون) فيما أخبرناك من خبره.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك: "حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (واسأل القرية التي كنا فيها)، وهي مصر.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: (واسأل القرية التي كنا فيها) قال: يعنون مصر.

جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله:

(واسأل القرية التي كنا فيها) قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، (والعير التي أقبلنا فيها) أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، (وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

وفي تفسير القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى.. ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير﴾ حققوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم؛ فقولهم: واسأل القرية أي أهلها؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر. وقيل: قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل المعنى واسأل القرية وإن كانت جمادا، فأنت نبي الله، وهو ينطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه: ولا يجوز كلم هندا وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يشكل. والقول في العير كالقول في القرية سواء. وإنا لصادقون في قولنا.

وفي التحرير والتنوير ذكر ابن عاشور رحمه الله أن المراد بالقرية المدينة والعكس وأنهما تسميتان مترادفتان:

وسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها. والمراد بها مدينة مصر. والمدينة والقرية مترادفتان. وقد خصت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة. والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من [ص:٤١] أرض كنعان، فأما سؤال العير فسهل وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات. وسياق القصة القرآنية يبين بأن مكان نفوذ يوسف عليه السلام كان مدينة ولم يكن قرية فهي ذات الموضع الذي بيع فيه وظلم فيه وولاَّه الله عليه ونستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف (٣٠)

ويبدو أن ذلك هو الذي أوحى لابن عاشور رحمه الله بالقول بالترادف وأن المدينة قرية كبيرة.

ما يظهر من الآية

نقول بأن يوسف كان في مدينة، وما حدث لإخوته أنهم انضموا لقافلة تنقلهم لمصر وتعيدهم لمسكنهم في البادية ومعهم فئتين من الناس (أصحاب القافلة) الذين ينقلون الناس والبضائع، والمسافرون الآخرين من القرى القريبة منهم.

وعندما استشهدوا لم يكن ذلك بمجاهيل فقد استشهدوا (القرية التي كنا فيها) يعني القرويين الذين رافقونا في سفرنا وشاهدوا ما حدث لنا، (العير التي أقبلنا فيها) أي أصحاب القافلة وملاك العير الذين نقلتهم ذهاباً وجيئة، والاستشهاد بأهل مصر بعيد فكيف لرجل ضرير أن يسافر لمصر ومن يسأل في مدينة كبيرة؟ فلا يكون الاستشهاد إلا بأعيان شهود وبالتالي فالمراد والله أعلم أهل القرية التي رافقوهم في رحلتهم وأصحاب القافلة التي نقلتهم كما أسلفنا، وربما لا يجوز أن يكون الأمر كما قال الطبري رحمه الله من أنهم امتاروا في قرية بعد خروجهم من المدينة فكيف يسألهم يعقوب وليسوا شهوداً على الواقعة؟.

وهنا نقول أن المدينة غير القرية وليس هناك ترادف وإبراز الفروقات بينهما:

القرية: مَجْمُوعَةٌ مَحْدُودَةٌ مِنَ المَنَازِلِ تَجْمَعُ أُنَاسَاً غَالبِهُم مِنْ عِرْقٍ

وَاحدٍ وَملةٍ واحدةٍ وصَنْعةٍ غَالِبة (كَزِرَاعَةٍ أو صِنَاعَةٍ أوْ حِرْفَة) لذلك فالمشتركات بين مثل أولئك الناس تجمعهم دائما على موقف واحد من الأنبياء فهم متحدون متشابهون في حياتهم فما أن يظهر بينهم نبي حتى يطيعوا كبرائهم ويقاوموا الدعوة حميةً واتّباعاً للباطل واستكباراً يقول تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) (سبأ ٣٤)

المدينة: مِنْطَقَةٌ سَكَنِيَّةٌ وَاسِعَةٌ تَجْمَعُ أُنَاسَاً مُخْتَلِفيْ الأَعْرَاقِ وَالمِلَلِ وَالمِهَنِ وَالأَعْمَالْ تُجْلَبُ إلِيْهَا الأَرْزَاقُ وتَسُودُ فِيْهَا التِّجَارَة. والمدينة عادة يحيط بها عدد من القرى، وكانت المدن في الماضي تحاط بسور وأبواب تغلق ليلاً أمام الداخلين إليها وهذا لم تتميز به القرى لأن أهلها يعرفون بعضهم ويُعرفُ الأغراب بينهم بسهولة، وهذا التعريف ينطبق على المدينة المنورة (مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم) حيث كان يسكن فيها أناس من ملل وأعراق مختلفة فمنهم اليهود، ومنهم الأوس والخزرج والمهاجرون من قريش وغيرهم من الناس فكانت مختلفة عن مكة التي يسود فيها قريش وهي بلدتهم ويتبع فيها دين واحد وهو عبادة الأصنام.

الموضع الثاني: قرية اليتيمين الآيتين التاليتين:

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) الكهف (٧٧)

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف (٨٢)

ولعلنا نستعرض أبرز أقوال المفسرين رحمهم الله في التفريق بين القرية والمدينة المذكورتين في هاتين الآيتين الكريمتين: يقول ابن كثير رحمه الله: في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولا ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ها هنا: فكان لغلامين يتيمين في المدينة كما قال تعالى: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك [محمد: ١٣]، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف:٣١] يعني: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما.. الخ.

وجاء في تفسير القرطبي: ودل قوله: "في المدينة" على أن القرية تسمى مدينة؛ ومنه الحديث ﴿أمرت بقرية تأكل القرى...﴾ وفي حديث الهجرة ﴿لمن أنت﴾ فقال الرجل: من أهل المدينة؛ يعني مكة.

ما يظهر من الآية عند القول بنفي الترادف فينبغي أن تكون المدينة التي يسكنها الغلامين غير القرية التي بها الجدار، وهذا متسق لا يشكل عليه شيء بل إن شواهد الآية تدل على أن ﴿الجدار يريد أن ينقضَّ﴾ يبين للقارئ أن الجدار متهاوٍ متضعضع من منزل أو حائط مهجور يوشك على الانهيار، وبالتالي فالغلامين كانا غائبين عن هذا الموضع حيث لم يرهما

موسى عليه السلام ولم يعلم بأمرهما إلا من الخضر لكونهما كانا في المدينة وليسا في القرية التي لهما فيها عقار وهو الجدار وهما يسكنان في مدينة وهي موضع آخر غير القرية وهذا بلا شك يسوغ ويبرر لأهل القرية الاستيلاء على الكنز في ظل غياب صاحبيه.

ولا يوجد ما يدعو لالتباس الفهم والتعارض بين النص ومفهومه ولا يوجد إشكال في هذا الفهم البسيط، ولكن القول بالترادف يشكل عليه أمور كثيرة أولها وأهمها الترادف نفسه وعدم وجود ما يدعو لتسمية القرية في موضع وتغييرها لمدينة في موضع آخر.

الجبال في القرآن الكريم

ليس بوسع أي عالم مُنصف من علماء الجيولوجيا أو الجغرافيا، إلا أن يشهد أن القرآن حق، وذلك حينما يتدبر كلام القرآن عن الجبال، ففي القرآن الكريم نجد أدق وصف للجبال، ونجد أيضًا الكثير من الحقائق عن الجبال التي لم يكتشفها العلماء إلا في القرن العشرين، وحديث القرآن عن الجبال يشير إلى أقدم الجبال وأطوار نشأتها، وينتهي بالإخبار بمآل الجبال بين يدي الساعة، فتلك أقدم الجبال جعلها الله رواسي للأرض من فوقها؛ لتثبيت الأرض وحفظها من الاضطراب، والجبال بصفة عامة تعمل على اتزان الأرض، ومن ثم كانت الجبال أوتادًا تثبت الأرض، حقًّا الجبال خلق عظيم، ولعظم شأنها حثَّ القرآن على التفكر فيها؛ حيث يقول عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

والجبال تقرن في آيات القرآن مع السماء والأرض؛ يقول تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ – ٩٢].

والجبال كالكائن الحي تنفعل وتخر هدًّا من هول جريمة ادعاء

الولد إلى الله، بل إنها أشفقت من حمل الأمانة؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الجبال الشم الرواسي تشارك المخلوقات في سجودها وتسبيحها للخالق عز وجل، ومع ذلك يستنكف الكثير من الناس أن يشاركوها في سجودها؛ يقول تبارك تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأرض وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. وتسبيح الجبال شيء لا يدركه العقل البشري، وقد تفضل الله على عبده داود، فجعل الجبال تسبح معه؛ يقول تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٧-١٨]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وفي الوقت الذي كان فيه داود شاكرًا لأنعم ربه، جحدت عاد نعمة ربهم الذي سخر لهم الجبال ينحتون منها البيوت بحذق ومهارة؛ يقول تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٢- ٨٣].

والجبال منظومة كونية يرد ذكرها في القرآن بصيغة الجمع، فإذا ما وردت الكلمة بصيغة المفرد "جبل"، فإنها تحمل إيحاءً مخصوصا، فهي

جبال شهدت مع إبراهيم عليه السلام كيف يحيي الله الموتى، أو جبل دُك في الأرض حينما تجلى الله له، أو جبل يخشع ويتصدع من حمل الأمانة، أو جبل ينتق فوق بني اسرائيل؛ ليأخذوا ما آتاهم الله بقوة، أو جبل يعتقد ابن نوح جهلًا منه أنه يعصمه من الغرق؛ [البقرة – ٢٦٠، الأعراف: ١٤٣، الأعراف: ١٧١، هود: ٤٣، الحشر: ٢١]

وفي القرآن إشارة علمية شغلت العلماء قديمًا وحديثًا حول وظيفة الجبال، وما معنى أنها رواسي؟ وعلى أي شيء ترسو؟ وحقيقة الجبال الأوتاد، وما هي العلاقة بين شموخ الجبال وتصريف الرياح، وإنزال المطر، وطبيعة العلاقة بين مد الأرض وإنقاصها من الأطراف والرواسي؟ وهل الجبال تتحرك في الدنيا؟ ولسوف نوضح تلك الإشارات؛ ليتبين لنا سبق القرآن في كشف ظواهر الجبال، ونشير إلى مآل الجبال في الآخرة، ولسوف نفصل الحديث في النقاط التالية:

الإشارات العلمية:

وفيما يلي بيان العطاءات العلمية لآيات الجبال في القرآن الكريم:

١- كلمات تهدي وآيات تكشف:

أ- الكلمات الهاديات:

رواسي، رواسي شامخات، الجبال أوتاد، ألقى فيها رواسي، جعل فيها رواسي، نَصْب الجبال، مد الأرض، تميد الأرض، الجبال أكنان،

جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها، غرابيب سود، تسيير الجبال، دك الجبال، نسف الجبال، قاع صفصف، تسيير الجبال، الجبال كالعهن، الجبال كالعهن المنفوش، الجبال كثيب مهيل.

ب- الآيات الكاشفات:

١- الرواسي الأصيلة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

٢- الرواسي بين الجعل والإلقاء: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

٣- مرور الجبال: يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

٤- وتدية الجبال: يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَادًا﴾ [النبأ:٧].

٢- أقدم الجبال [شكل: ١]:

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

كانت الأرض في مهد نشأتها مضطربة غير مستقرة، فجعل الله فيها جبالا ثوابت لئلا تميد، وللعلم أن أكثر الأقاليم استقرارًا هي الرواسخ [الكريتونات: "Cratons"، وتمثل الدروع [Shields] وهي أقدم صخور الأرض أنوية القارات، فالدرع العربي على سبيل المثال يمثل ركيزة شبه الجزيرة العربية، والدرع الإفريقي يمثل أساس القارة الإفريقية، وهكذا تمثل الدروع القاعدة التي تستند عليها عجائب العالم.

والجدير بالذكر أن الرواسي الأصيلة في الأرض جعلت فيها من مادة الأرض من خلال نشاط داخلها صيَّرها رواسي، ولهذا لا يفهم ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ على أنها أنزلت من السماء.

نصب الجبال:

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠].

ويلزم الإحاطة من فروع علوم الأرض؛ لكي نفهم كيف تنصب الجبال، إنها عملية غاية في التعقيد، تتطلب معرفة أنواع صخور الجبال وبنياتها، ومكونات الصهارة [المجما] التي تصعد من جوف الأرض، والعوامل التي تؤثر على الأرض؛ سواء من داخلها، أو على سطحها، وأخيرًا معرفة تفسر الآلية التي تبرز فيها الجبال في ضوء نظرية ألواح الغلاف الصخري، وكلما نمت المعارف الجيولوجية، بدأنا نفهم توجيه

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، وكلما ارتفعت سلاسل الجبال، كانت الجبال أحدث عمرًا، فجبال الهيمالايا التي تحوي على أعلى قمة في العالم اليوم بدأ نصبها منذ ٤٥ مليون سنة، بينما توقف رفع جبال الأبلاش منذ ٢٥٠ مليون سنة.

ولا تبرز فجأة، بل يستغرق تكوين الجبال ونصبها ملايين السنين عبر رحلة شاقة ضاربة في أعماق الزمان، وفي أثناء تلك الفترات تتراكم الرواسب ثم يعتريها التشوه والتصدع ثم ترفع الجبال، وقد تنصب الجبال بأن تصطدم قارة بقارة أخرى.

وإليك على سبيل المثال قصة نصب سلاسل جبال الهيمالايا [شكل:٢]، فالهند كانت تقع على الحافة الجنوبية لبحر قديم لا وجود له اليوم اسمه بحر التيثي [Tethyan Ocean]، بينما كانت تقع التبت عند الحافة الشمالية لذلك البحر العظيم، كان ذلك منذ قرابة المائة مليون سنة، وقطعت الهند مسافة حوالي ١٥٠٠ كم في أثناء زحزحتها باتجاه آسيا، إلى أن أتى وقت اختفي البحر وابتلعه جوف الأرض، وجاءت لحظة التصادم المحتومة، وعند نطاق التصادم دكت الهند دكًّا، وسُحِقت التبت سحقًا، ركبت الأخيرة فوق الهند، وحينئذ نصبت جبال الهيمالايا.

حقًّا إنها أشبه بقيامة صغرى تعلو فيها قارة فوق قارة، والأعجب أن تبرز الجبال من رحم المحيط، وجبال عمان الشمالية خير مثال على ذلك، فحول العاصمة مسقط يمكن أن ترى قاع بحر قديم قد ألقي على

اليابسة، نتيجة تصادم قاع ذلك البحر بيابسة العربية، وامتطى قاع البحر سطح الأرض، وأثناء التصادم – ذلك التصادم المريع – نقلت جبال من أماكنها بالكامل لمئات الكيلو مترات.

وتنشأ جبال وتنصب من جراء تصادم قارة بقارة مجاورة، أو قارة وقاع بحر، أو قاع بحر ينطبق من منتصفه، وأيضًا من رحم البحر المشقوق من منتصفه، أو القارة المنشطرة، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وتبقى كلمات القرآن حافزًا للعقل البشري؛ ليبحث في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ويثبت العلم الحديث أن الجبال تنشأ بفعل حركة قطع الأرض المتجاورات؛ حيث تتصادم القطع المتجاورة أو تتباعد، ومن تصادمها وتباعدها تبرز سلاسل الجبال؛ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]

هذا وقد أشرنا من قبل إلى تقطيع الأرض ومرور الجبال.

الْجِبَالَ أَوْتَاد: يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦–٧]

والجبال ظاهريًّا تشبه الوتد، ولكن ما اكتشف حديثًا يجزم بأن الجبال أوتاد، فلنأخذ جبال الهيمالايا على سبيل المثال؛ حيث تعلو قمتها ثمانية كيلو مترات، وبضع مئات الأمتار عن سطح البحر، والمدهش أن المسح الجيولوجي أثبت أن قاعدة الهيمالايا تضرب

لمسافة ٦٥ كيلو مترًا تقريبًا في جوف الأرض؛ حيث تطفو الجبال في وشاح الأرض اللدن [شكل: ٣]، وبصفة عامة فإن الجزء المختفي من الجبال تحت السطح يعادل على الأقل ثمانية أضعاف الجزء البارز فوق سطح الأرض، حقيقة وتدية الجبال لم يعرفها بشر عند نزول القرآن، ولا حتى بعد نزوله، بقرابة ألف عام، حقًّا إنه الوحي الذي أخبر محمد بذلك في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ بمعنى جعل للأرض أوتادًا، أرساها وثبتها وقرَّرها؛ لتسكن ولا تميد بأهلها، والجبال من الناحية الشكلية أشبه بأوتاد الخيمة التي تُشد إليها، ويرى الدكتور محمد أحمد الغمراوي [رحمه الله] أن الجبال تساند عمل الجاذبية الأرضية للاحتفاظ بهواء الأرض، والحقيقة أن الجبال في الأقاليم المتزنة تؤدي إلى نمطية الجاذبية، ويطرح الدكتور الغمراوي سؤالين يتطلبان بحثًا علميًّا، وهو: أكانت جاذبية الأرض كافية للاحتفاظ بهواء الأرض، لو أن كتلتها نقصت بقدر كتلة الجبال؟ وهل لارتفاع الجبال دخل في احتفاظ الأرض بجوها؟ ويمكن صياغة السؤال الثاني: هل لو أصبح سطح الأرض قاعًا صفصفًا مستويًا مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة، تكفي جاذبيتها عندئذ للاحتفاظ بالهواء؟

ويؤكد علم الجيوفيزياء أن تضاريس الأرض بما فيها الجبال، تؤثر على توزيعات الجاذبية الأرضية، والجزء البارز من الجبال له وظيفة تساعد في الإمساك بما فوقه، وبينما الجزء المغمور في الأرض له وظيفة

تعمل على تثبيت الأرض، ومن روعة النص القرآني أن [أوتادًا] تشير إلى وظيفة الأوتاد، وأيضًا اختلاف ماهية الأوتاد؛ سواء في الأبعاد، أو المكونات، أو العمق؛ وفقًا لاختلاف أنواع الجبال.

الجبال بين الإلقاء والجعل:

يستخدم الفعل "جعل" في خمس آيات قرآنية، وفي أربع آيات أخرى يستعمل الفعل "ألقى"، وذلك عند الحديث عن رواسي الأرض، ومن اللافت للنظر أن الكلمة ترد دائمًا بدون ألف ولام "رواسي"، وذلك لحكمة، فالرواسي يختلف عددها من زمن إلى زمن، وتشكل الجبال العمود الفقري لقارات العالم قديمًا وحديثًا؛ لتحفظ حفظ الأرض؛ لئلا تميد (شكل:٤)، وتوجد علاقة قوية بين مد الأرض وإلقاء وجعل الرواسي، والقرآن وهو يتحدث عن جعل الرواسي في الأرض يذكر في موضع واحد أن هناك رواسيَ من فوقها، وفي جميع الآيات الخمس يذكر الرواسي في الأرض إلا في موضع واحد، يذكر فيه أن الرواسي للأرض ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾.

وتلك هي مواضع ذكر جعل وإلقاء الرواسي: آيات جعل الرواسي – آيات إلقاء الرواسي

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ (الرعد: ٣)

﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (الحجر: ١٩).

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)

﴿وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

﴿أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل: ٦١)

﴿وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان: ١٠).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠)

﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق: ٧).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا﴾ (المرسلات: ٢٧)

والموضع الوحيد الذي جمع الجبال والإرساء هو: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٣٢)

وتعلو الجبال عما حولها، فالجبل يعلو فوق الأرض بما لا يقل عن ٣٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، وبحسب مادة الجبل هناك جبال

يتكون أصل صخورها من صهير (مجما)، يصعد من جوف الأرض، وفي أثناء صعوده يبرد ويتبلور، وإذا ما تكونت الصخور على أعماق من سطح الأرض سُمِّيت بالصخور الجوفية؛ لأنها تتكون على أعماق كبيرة تحت السطح، أما إذا شق الصهير طريقه للسطح، فعند برودته يتجمد؛ ليُكوِّن الصخور البركانية، وتنشأ منه الجبال البركانية وغيرها من الأشكال، والمختفي تحت السطح يبرز على السطح نتيجة حركات ترفعه أو عوامل تزيل ما علاه من مادة الأرض والصخور، فالجبال التي بمكة المكرمة مثلاً من ذلك النوع، وقيل: إن أقدم موضع في الأرض هو الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، ثم دُحيَت الأرض من تحته؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

وبروز الجبال فوق سطح الأرض عملية معقدة كما أشرنا من قبلُ، وأقدم الجبال هي الرواسي، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾، ولما كانت تلك الرواسي من فوق الأرض وهي في نفس الوقت فيها، فإن نشأتها ونموها يعد موضوعًا محيرًا لدارسي معالم الزمان الباكر، المعروف بزمان ما قبل الكمبري، وفي البداية غطى بحر النار (الصهارة) سطح الأرض، ولما بردت الصهارة، تكونت قشرة المحيط، أما كيف نشأت الرواسي؟

ويبدو أن الجبال جاءت نتيجة عمليات معقدة أدت إلى تكوين الرواسي في الأرض فوق سطحها، وبرزت الجبال الأصيلة الأولية، وتعرضت خلال آماد طويلة من الزمن لعوامل الهدم، ونقلت مكوناتها

لتلقى في المناطق المنخفضة، ثم تُزال تلك الجبال لتنشأ جبال أخرى نتيجة إلقاء مكونات الجبال السابقة، وهنا يتضح عطاء القرآن في الحديث عن جعل الرواسي في الأرض تارة، وعن إلقاء الرواسي فيها تارة أخرى، وعلى علماء العربية أن يبحثوا في عطاء نظم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وقوله أيضًا ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾.

الجبال واتزان الأرض:

توازن أبدعه الخالق في الأرض؛ حيث جعل الغلاف الصخري للأرض يطفو فوق غلافه اللدن المسمى بالغلاف الطيع (الأثينوسفير)؛ لأن كثافة الغلاف الأول أقل من كثافة الغلاف الثاني؛ لهذا تطفو القارات وقيعان البحار على وشاح الأرض، كما يطفو جبل الجليد فوق الماء، وتضرب القارات جذورها في وشاح الأرض (شكل: ٥)

ويلاحظ أن الجذور أسفل سلاسل الجبال أكثر عمقًا من الجذور تحت المناطق المستوية، هذا ما اكتشفه العلم، ولكن القرآن الكريم سجل ذلك قبل العلم بأكثر من ألف سنة؛ حيث يقول الحق ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، وبالتأكيد لفظ الوتد لا يعدله في الدقة اللفظ العلمي الجذر، وتشير كلمة "رواسي" في حد ذاتها إلى أن الأرض تطفو على نطاق تحتها توجد به الصخر في حالة سائلة (Mobile)، ويتأكد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾، وتلك إشارة علمية قرآنية أثبتها العلم الحديث، فالغلاف الصخري (Lithosphere) الذي يشمل القشرة وآخر جزء من الوشاح، والذي يبلغ سمكه ١٠٠ كم يرتكز على الغلاف الطيِّع أو

غلاف المور، والغلاف الطيع يمتد من قاعدة الغلاف الصخري عند عمق ١٠٠ كم، حتى عمق ٣٥٠ كم بسمك قدره ٢٥٠ كم، ويشبه في مظهره أسفلت الطريق في يوم صائف، وهذا الغلاف الأخير رقيق تحت المحيطات وسميك تحت القارات.

وتقوم الجبال بضبط اتزان الأرض، فتبرز الجبال حينما يخف الثقل على سطح الأرض، فعلى سبيل المثال أدَّى تكوين الغطاء الجليدي إلى هبوط الإقليم الإسكندنافي ببطء أثناء العصر الجليدي، ثم بدأ الإقليم يرتفع بعد ذوبان هذا الغطاء الجليدي منذ ١٠,٠٠٠ سنة، ومازال الإقليم يحاول الوصول إلى حالة التوازن؛ حيث ترتفع الأرض بمعدل ١ سم في السنة، وأيضًا تمر الجبال بدورة طويلة من التآكل، وتنقل مكوناتها، فتترسب في الأماكن المجاورة، فتضغط على قشرة الأرض؛ حتى تعيد التوازن مرة أخرى، ويؤدي الضغط إلى سريان مادة الوشاح اللينة باتجاه قاعدة (وتد) الجبال فترفعها، ويستمر تآكل الجبال من قمتها ورفعها من قاعدتها؛ حتى ينكشف الجزء الذي كان مختفيًا ويتآكل، وتصبح الجبال قاعًا صفصفًا، والأرض متزنة اتزانًا عجيبًا، وتتوزع الجبال على الأرض بنظام عجيب، يجعل الأرض لا تميد بأهلها.

جدد الجبال:

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧) وتفسر الآية على أن الله خلق الجبال كذلك

مختلفة الألوان كما هو الشاهد أيضًا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جُدة مختلفة الألوان، ولكي نفهم العطاء العلمي لتلك الآية، لا بد من أن نعرف أن مادة الصهير التي هي مادة حجارة الأرض تتكون في غرف في باطن الأرض تسمى غرف الصهارة (Magma Chamber)، توجد على أعماق من باطن الأرض، وأثناء صعود الصهارة تخترق الصخور وتتداخل على أعماق بعيدة أو قريبة من سطح الأرض، وتأخذ تلك المتداخلات النارية أشكالاً عدة منها ما يأخذ شكل طرائق على هيئة ألواح تتوازى أو تتقاطع مع الطبقات التي تخترقها، وفي حالة توازيها تسمى السدود (Sills)، وفي حالة عدم توازيها تسمى القواطع (Dikes)، وليس هناك أدق من التعبير القرآني "جُدَد" لوصف هذه المتداخلات النارية، والجدد لا توجد في كل جبال العالم، بل توجد في بعضها، وبهذا تتضح دقة نظم القرآن في قوله: "ومن الجبال"؛ حيث مِن تفيد التبعيض، ولم يكن الناس عند نزول القرآن ولا بعد نزوله بأكثر من ألف عام، قد تدارسوا جميع جبال العالم؛ حتى يتحققوا من أنه ليس كل جبال تقطعها جُدد، أما قوله: "وَغَرَابِيبُ سُودٌ" فتشير إلى ظاهرة شديد السواد، فالعرب يصفون شديد السواد بأنه غربيب؛ ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية من المقدم والمؤخر بمعنى أن "وَغَرَابِيبُ سُودٌ"، هي "سود غرابيب" وفيها نظر، وإذا قلت: سود غرابيب تجعل السود بدلاً من غرابيب؛ لأن توكيد الأوان لا يتقدم، ومن ثَمَّ فنحن أمام ظاهرة في الجبال اسمها غرابيب ولونها أسود، والغامق في الصخور النارية هي الصخور فوق القاعدية أو المافية (Mafic)؛ مثل: الجابرو، والبازلت، فإن عادت غرابيب سود على جُدد، فهذا يعني جددًا من صخور غامقة اللون من الجابرو أو البازلت، أو غيرهما من الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وإذا عطفناها على "ومن الجبال"، أصبحنا أمام ظاهرة اسمها "غرابيب"، ولونها أسود، قد تكون

صورة من صور المتداخلات النارية التي يعرفها الجيولوجيون؛ مثل: اللاكوليت، أو اللابوليث، أو قد تكون طفوحًا من البازلت، أو قد تكون شيئًا آخر سيصل العلم إلى تعريفه في المستقبل والله أعلم.

أما اللفتة العلمية المبهرة في الآية السابقة أيضًا، فهي الإشارة إلى ألوان الجدد وألوان الجبال بصفة عامة، فإذا قيل: إن الألوان تعود على الجدد، فهذا يمثل عطاءً علميًّا يعكس التركيب الكيميائي والمعدني لصهارة الأرض التي تمثل مصدر الجدد، فمنها الصهارة الحامضية التي تعطي الصخور الفاتحة اللون كالجرانيت ومجموعته، ومنها الصهارة المتوسطة التركيب التي تعطي صخورًا ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة، والألوان الداكنة من جهة أخرى، والتي يغلب عليها اللون الرمادي، وتضم عائلة الديواريث، وتقع تحت وصف "مختلف ألوانها"؛ (د. زغول النجار–٢٠٠٢)، ومنها الصهارة القاعدية (Basic) والتي ينتج عنها صخور غامقة اللون حتى السواد، ومنها الصخور الغامقة (Mafic)، أو القاعدية وفوق القاعدة التي تضم عائلتي الجابرو والبريدوتيت، وأما إذا عادت الألوان على الجبال، فألوان الجبال مهما تعددت أصولها؛ رسوبية كانت، أو نارية، أو متحولة، فلا تزيد عن بيض وحمر وسود بدرجاتها المختلفة، وسبحان من أعطى وصفًا دقيقًا يشير إشارة جامعة إلى التركيب الكيميائي والمعدني لجبال الأرض، مع وصف ظاهرة الجدد والغرابيب، وذلك في آية واحدة من آي القرآن الكريم.

الأحقاف مساكن قوم عاد

أن تُسمى سورة من سور القرآن الكريم باسم المكان الذي سكنه قوم قد أهلكهم الله بعد أن كفروا بالله وكذبوا رسله لا بد وأن يكون لحكمة بالغة يريد الله منها لفت أنظار البشر لهذا المكان وكشف ما به من عجائب قدرته. فالأحقاف هو اسم إحدى سور القرآن الكريم وهو اسم المنطقة التي سكنها قوم عاد وهم قوم نبي الله هود عليه السلام. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وصف المدينة التي سكنها هؤلاء القوم وهي (إرم ذات العماد) بأنها لم يخلق مثلها في البلاد فإن في رمال الأحقاف التي تحتضن هذه المدينة تحت رمالها من العجائب الطبيعية ما يفوق أضعافا مضاعفة ما يبنيه الإنسان من أبنية وقصور.

وفي هذه المقالة سنوضح كيف أن صور الجوجل إيرث تكشف كثير من اللوحات الطبيعية الموجودة في منطقة الأحقاف والتي رسمتها الرياح والمياه على سطح الرمال بتقدير من الله سبحانه وتعالى. وإلى جانب ذكر مكان سكنى قوم عاد بالاسم الصريح في القرآن الكريم وذلك على عكس بقية الأقوام البائدة فقد تضمنت الآيات القرآنية التي تتحدث عنهم وعن مصيرهم بعض الإشارات التي ستساعدنا في تحديد في أي جزء من الأحقاف تقع مدينتهم إرم وذلك بالاستعانة بالصور المأخوذة من الجوجل إيرث لمنطقة الأحقاف. ويمكن للقارئ الرجوع إلى مقالة "اكتشاف مساكن قوم عاد" بقلم الأستاذ فراس نور الحق

المنشورة على موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لمزيد من التفصيلات.

لقد ورد ذكر المكان الذي كان يسكنه قوم عاد في سورة الأحقاف في قوله تعالى "وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)" الأحقاف. وقبل أن نقوم بتحديد مكان منطقة الأحقاف لا بد من شرح معنى الأحقاف كما ذكر في تفاسير القرآن فقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن الأحقاف هي جبال الرمل، أما الماوردي فقد عرفها تعريفا دقيقا في تفسيره يتوافق تماما مع صور الجوجل إيرث فقال: (الأحقاف جمع حقف وهي ما استطال واعوج من الرمل العظيم ولا يبلغ أن يكون جبلا). أما موقع منطقة الأحقاف فقد أوردت التفاسير أقوال مختلفة ولكن معظمها يجمع على أنها في جنوب جزيرة العرب ما بين اليمن وعمان على تخوم الربع الخالي الجنوبية أو ما يسمى بالأحقاف. فقد قال مجاهد عن مكان الأحقاف بأنها أرض من حسمى، وقال ابن زيد هي بالسحر في اليمن وقال الضحاك هي جبل بالشام وقال ابن اسحاق هي ما بين عمان وحضرموت، وقال ابن عباس هو واد بين عمان ومهرة. وحاليا تطلق منطقة الأحقاف على الأجزاء الشرقية من حضرموت اليمنية ومحافظتي المهرة وظفار العمانيتين.

وإذا ما اعتمدنا على أن معنى الأحقاف هو ما استطال واعوج من الجبال الرملية – كما عرفها الماوردي في تفسيره – فإن منطقة الأحقاف

لا يمكن أن تكون إلا في الجزء الجنوبي من الربع الخالي وذلك لخلو بقية شبه الجزيرة العربية والشام والعراق وكذلك مصر من مثل هذه الجبال الرملية المستطيلة والمعوجة. وتشكل منطقة الأحقاف جزءًا كبيرًا من الربع الخالي وهي كامل الجزء الجنوبي منه وتمتد من الغرب إلى الشرق على شكل شريط بطول يزيد عن ألف ومائتي كيلومتر، وبعرض يتراوح بين خمسين وثلاثمائة كيلومتر. وتقع بداية جبال الأحقاف الرملية من جهة الغرب في داخل اليمن على بعد مائة وخمسون كيلومتر شرق مدينة صنعاء..

أما نهايتها فتقع من جهة الشرق في الإمارات العربية على بعد مائة كيلومتر من مدينة العين على الخليج وذلك عند واحة ليوا كما هو واضح في الصورة التالية والتي تظهر فيها منطقة الأحقاف باللون البني كما وردت في جوجل إيرث.

ويبلغ ارتفاع منطقة الأحقاف عند بدايتها في اليمن ألف ومائة متر عن سطح البحر وتقل تدريجيا كلما اتجهت شرقا حتى تصل إلى مائة متر عند نهايتها في الإمارات. ويقع ما طوله مائة كيلومتر من الأحقاف في اليمن ثم بطول ستمائة كيلومتر بين اليمن والسعودية ثم بطول مائتي كيلومتر بين السعودية وعمان حيث تقع إرم ذات العماد ثم بطول ثلاثمائة كيلومتر في السعودية وأخيرا خمسين كيلومتر في الإمارات.

تتكون منطقة الأحقاف في الجزء اليمني وكذلك الجزء السعودي اليمني من جبال أو كثبان رملية مستطيلة أو شريطية الشكل ومتوازية وهي

في غاية الانتظام من حيث المسافة بين الكثبان المتجاورة وكذلك عرض وارتفاع الكثيب. فالمسافة بين الكثبان المتجاورة تكون أكبر ما يكون عند بدايتها في الجزء اليمني حيث تصل إلى خمسة كيلومترات وتقل إلى كيلومترين عند نهاية الجزء السعودي اليمني، أما عرض الكثيب فيتراوح بين كيلومتر عند البداية ويقل لنصف كيلومتر عند النهاية وأما ارتفاع الكثيب فيتراوح بين خمسين متر ومائة وخمسين متر.

وتوضح الصور التالية: الكثبان الرملية في الجزء اليمني وهي أكثر كثبان الأحقاف انتظاما ففي الصورة الأولى تظهر بداية تكون الكثبان في الجزء اليمني ويظهر في الصورة كيف أن بعض الكثبان يمتد لمسافة عدة مئات من الكيلومترات دون أن ينقطع فالخط الأصفر في نهاية الصورة هو الحدود اليمنية والسعودية. أما الصورة الثانية والثالثة فتبين مدى الانتظام في هذه الكثبان وعلى الرغم من أن الصورة تظهر الكثبان وكأنها جبال صلبة إلا أنها رمال في غاية النعومة ولكنها تحافظ على أشكالها المنتظمة رغم تعرضها للرياح.

أما كثبان الأحقاف في الجزء العماني فهي أقل انتظامًا من تلك التي في الجزء اليمني واليمني السعودي، ويعود عدم الانتظام هذا إلى تداخل العوامل التي شكلت هذه الكثبان حيث غيرت مياه الأودية الكبيرة التي تصب في رمال الأحقاف من تضاريس الكثبان الرملية التي شكلتها الرياح. وتظهر الصور التالية أشكال الكثبان في هذه المنطقة من الأحقاف والتي سنبين فيما بعد أن هذه المنطقة هي المكان المحتمل

لمساكن قوم عاد ومدينتهم إرم ذات العماد.

أما الجزء السعودي والذي يحتوي على أكبر نسبة من الكثبان الرملية فإنه يضم أكبر تشكيلة من اللوحات الفنية للكثبان الرملية.

ويقول علماء الجيولوجيا أن هذا الجزء من الأحقاف يحتوي على كميات ضخمة من المياه الجوفية، وأما الجزء الإماراتي من الأحقاف فعلى الرغم من صغر مساحته إلا أنه يحتوي على لوحات فنية للكثبان الرملية في غاية الروعة خاصة إذا ما تخللتها واحات النخيل. وستساعدنا هذه الصور لتلك المنطقة في فهم الكيفية التي تم بها دفن قوم عاد ومدنهم ومزارعهم تحت رمال هذه الكثبان. وتظهر الصورة الأولى المنظر العام لنهاية منطقة الأحقاف في الإمارات العربية ويظهر في الصورة جزء من أحقاف السعودية وتبين الصورة كيف أن الأحقاف تنتهي على شكل قوس بطول لا يتجاوز مائتي كيلومتر وكيف أن المياه التي تجمعها رمال الأحقاف من جبال اليمن وعمان تفيض عند نهايتها لتسقي واحات ضخمة تمتد على طول مائة كيلومتر وهي واحة ليوا الإماراتية كما تظهر باللون الأسود. أما الصور الأخرى فتبين بعض اللوحات الفنية للكثبان الرملية في منطقة السعودية والإمارات وتبين كذلك بعض واحات ليوا التي تقع بين الكثبان الرملية بينما تبين الصورة الأرضية إحدى هذه الواحات.

ونعود الآن لتحديد في أي جزء من الأحقاف يوجد المكان الذي سكنه قوم عاد، وذلك على ضوء الآيات القرآنية التي تحدثت عن هؤلاء القوم. وكما هو معروف فإن المدن والقرى تبنى حيث توجد مصادر

المياه التي يشرب منها البشر ويسقون منها أنعامهم ومزروعاتهم وعادة ما تزدهر هذه المدن وتظهر فيها الحضارات إذا ما توفرت المياه بشكل دائم وبكميات كافية كما هو الحال مع الحضارات التي ظهرت على أنهار النيل والفرات ودجلة.

لقد حدد القرآن الكريم أن قوم عاد كانوا يعتمدون على مياه العيون المنتشرة بين كثبان الأحقاف وذلك مصداقا لقوله تعالى "وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)" الشعراء. وإنه من غير المستغرب أن تتفجر هذه العيون من بين رمال هذه الصحراء القاحلة إذا ما علمنا أن كميات هائلة من مياه الأمطار التي تسقط على مرتفعات اليمن وعمان المحاذية للأحقاف من الجهتين الغربية والجنوبية تصب في رمال الأحقاف. إن مياه الأمطار الموسمية التي تسقط على سلسلة جبال حضرموت وعمان والتي يبلغ طولها أكثر من ستمائة كيلومتر، وبعرض يزيد عن مائتي كيلومتر تصل في النهاية إلى رمال الأحقاف من خلال عدد كبير من الأودية. وبما أن مستوى مياه العيون التي يتم حفرها فيما بين الكثبان يتأثر تأثرا مباشرا بكميات الأمطار التي تهطل على سفوح الجبال فإن قوم عاد كانوا يستبشرون خيرا عندما تنزل الأمطار على أوديتهم مصداقا لقوله تعالى "فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)" الأحقاف.

إن المياه التي تصب في رمال الأحقاف الممتدة من اليمن غربا إلى

الحدود اليمنية العمانية بطول سبعمائة كيلومتر لا تكاد تستقر فيها بل تجري باتجاه الشرق بسبب ميلانها الكبير فهي تبدأ بارتفاع ألف ومائة متر وتنتهي بارتفاع مائتين وخمسين متر.

أما الجزء الذي يمتد من الحدود اليمنية العمانية إلى نهايتها في الإمارات مرورا بالسعودية بطول خمسمائة كيلومتر فإن ميلانها منخفض جدا حيث تبدأ بمائتين وخمسين مترا وتنتهي بمائة متر؛ ولذلك فإن المياه الجوفية تتجمع بشكل كبير تحت رمال الصحراء وتسير ببطء باتجاه واحة ليوا الإماراتية. ومن الواضح من الصورة التالية أن المكان الأكثر احتمالا لمساكن قوم عاد هي الأحقاف الموجودة في المنطقة العمانية، وذلك لأسباب كثيرة أولها أن هذه المنطقة تغذى بالمياه من واديين عظيمين (باللون الأبيض) تمتد تفرعاتها النهائية على مدى مائتي كيلومتر من جبال حضرموت وعمان كما واضح من صورة جوجل إيرث التالية. وثانيها أن المياه التي تجمعها الأحقاف الموجودة في الجزء اليمني تصب في النهاية في هذه المنطقة بسبب ميلانها الكبير كما ذكرنا سابقا. أما ثالثها فهي اتساع منطقة الأحقاف في هذا الجزء منها وكذلك سهولة المنطقة الجبلية المحيطة بها مما يسهل من بناء المدن والقرى حول الأحقاف بينما يتم إنشاء المزارع فيما بين الكثبان الرملية التي تحتفظ بالمياه على شكل مياه جوفية كما هو الحال في واحة ليوا الإماراتية كما هو واضح من الصور السابقة.

وإلى جانب هذه الأسباب فإن المكتشفات الأثرية في هذه المنطقة

تؤكد على أن هذه المنطقة هي المنطقة المحتملة لوجود مدينة إرم ذات العماد والتي وصفها القرآن الكريم بأنها لم يخلق مثلها في البلاد من حيث عظم وجمال أبنيتها وذلك في قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)" الفجر.

ومما يؤكد على صحة فرضية وجود مدينة إرم في هذه المنطقة هو المصير الذي آلت إليه هذه المدينة والطريقة التي حل بها عذاب الله بالقوم الذين كانوا يسكنونها كما ورد ذلك في القرآن الكريم.، فقد جاء أن قوم عاد قد أهلكوا بالريح والتي وصفها الله بأوصاف مختلفة ومخيفة تبين مدى العذاب الذي حملته لقوم عاد كما في قوله تعالى "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)" (الحاقة)، وقوله تعالى: "كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)" (القمر)، وقوله تعالى "فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)" (فصلت)، وقوله تعالى "وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ

كَالرَّمِيمِ (٤٢)" (الذاريات).

تحدد الآيات صفات الريح التي أرسلت إلى عاد فهي أولا ريح صرصر أي ريح باردة جدا؛ ولهذا فلا بد أنها كانت قادمة من الشمال مما يعني أنها ستمر على صحراء الربع الخالي المفتوحة ذات الرمال الناعمة. وهي ثانيا ريح عاتية أي أن سرعتها بالغة العلو قد تصل لعدة مئات من الكيلومترات في الساعة وهي ذات قوة تدميرية عالية بحيث أنها تنزع الناس والحيوانات والأشجار وتطير بهم في الهواء كما نرى في الأعاصير المدمرة التي تضرب مناطق كثيرة من العالم فتحدث تدميرا كبيرا فيها.

ومن الواضح من الآيات أن هذه الريح كانت عاصفة رملية ضخمة تحمل كميات كبيرة من رمال الربع الخالي فأمطرتها على مدينة إرم التي تقع على حافة الأحقاف بعد أن اصطدمت بسلسلة الجبال التي تقع خلف مدينة إرم. لقد دفنت رمال العاصفة جميع مزارع عاد التي تقع بين الكثبان ومعظم المدينة كذلك والتي لم يظهر منها في ذلك الحين إلا الأجزاء العليا من مساكنهم والتي دفنت بشكل نهائي مع مرور آلاف السنين مصداقا لقوله تعالى: "تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)" (الأحقاف).

ويمكنك تخيل ما حل بمدينة إرم وواحاتها المنتشرة بين الأحقاف جراء العاصفة الرملية إذا ما تفكرت في مصير الواحة الظاهرة في الصورة العليا والمحاطة بالكثبان الرملية من كل جهة إذا ما تعرضت لعاصفة رملية

مماثلة (لا سمح الله). أما الصفة الأخيرة والعجيبة لهذه الريح فهي مدة هبوبها حيث استمرت بالهبوب لمدة سبع ليال وثمانية أيام متواصلة دون انقطاع أي ما يساوي مائة وثمانين ساعة، وعند الرجوع لما يقوله العلماء عن أطول مدة لبقاء العواصف وجدت أنها مائتي ساعة فسبحان القائل "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)" (الأعراف)

رقمات مدينة اصحاب الأخدود

مدينة أصحاب الأخدود التي ذكرها القرآن تكشف بعض أسرارها: عظام هشة ورماد وذهب وفضة وفخار. تتوالى الاكتشافات الجديدة لأصحاب الأخدود في جنوب المملكة العربية السعودية ومعها بعض أسرار مدينة أحرق ملكها سكانها قبل أكثر من ١٥٠٠ عام عقابا على اعتناقهم الدين المسيحي، ولم يعلم عنهم أحد شيئا حتى ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ومع هذا فان أمام خبراء الأثار كما يقول مدير الآثار في المنطقة، الكثير من الوقت، ربما يصل إلى الثلاثين عاما، ليكتشفوا أسرارهم كاملة.

ورغم مرور آلاف السنين مازالت العظام الهشة السوداء والرماد الكثيف شهود على الحريق الهائل التي أصاب مدينة الأخدود في عام ٥٢٥ من الميلاد. وللآن تروي تلك الأطلال والمباني قصة أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

"رقمات" أو مدينة الأخدود الأثرية والتي تقع على مساحة خمسة كيلو مترات مربعة جنوبي من وادي منطقة نجران (جنوب السعودية) مازال يكتنفها الغموض والأسرار رغم عمليات التنقيب والحفر المتواصل لمدة عشر سنوات متتالية.

ويشير صالح آل مريح مدير إدارة الآثار بمنطقة نجران إلى أن

منطقة الأخدود الأثرية تحتاج إلى ما يقارب ٣٠ سنة لمعرفة جميع أسرارها، وأن ما تم اكتشافه للآن لا يمثل إلا جزءا من آثارها ومعالمها.

منطقة إسلامية قديمة في مدينة الأخدود

وقال صالح: منذ تم التنقيب في منطقة الأخدود الأثرية، ومنذ عام ١٩٩٧م اكتشفنا العديد من الأثريات والأواني الفخارية وأدوات الزينة والعملات وشواهد القبور التي تخص المنطقة الإسلامية، مشيرا إلى احتواء المدينة الأثرية على منطقة إسلامية بها جزء من القبور الإسلامية المدون عليها اسم صاحبها وتاريخ وفاته. كما تم اكتشاف العديد من المدافن في الأجزاء الأخرى من المدينة والتي تعود الى ما قبل الميلاد.

وحول شواهد القبور التي وجدت في منطقة الأخدود الأثرية قال آل مريح: إن الشواهد وجدت في الجزء الجنوبي من المدينة، ويبدو ومن خلال الحفريات وعمليات التنقيب أن المنطقة الشمالية والجنوبية منها سكنت ما بعد الإسلام، واستخدم الجزء الجنوبي منها كمقابر إسلامية مستدلا بشاهد مكتوب عليه اسم صاحبه راشد بن سالم وتاريخ وفاته٥٤٢ من الهجرة.

وأضاف أن بقية الأخدود لم نجد فيه أي أثر إسلامي يدل على استخدامه من قبلهم سكنا أو مأوى، وقد امتد السكن من المنطقة الشمالية حتى أن هناك الآن قرية مجاورة للأخدود اسمها قرية الحفل. وأوضح آل مريح أنه تم أيضا اكتشاف أقدم مسجد بني في منطقة نجران

يعود تاريخه لسنة ١٠٠هـ وهو يقع في الجزء الشمالي من الأخدود.

وعن الخنادق التي أضرمت فيها النار، والتي أشار إليها القرآن الكريم في قصة أصحاب الأخدود يقول آل مريح: سميت الأخدود بذلك الاسم نسبة للحفرة التي أمر الملك الحميري بحفرها وتجميع الحطب بها وإحراق من اعتنق "المسيحية" التي كانت ديانة جديدة في ذلك الوقت، لذلك مازالت آثار الحريق بادية في أجزاء المدينة وعلى جدارها ومبانيها.

واستطرد: نحن للآن نحاول أن نكتشف الحفرة أو الأخدود الذي تم فيه الحرق عبر عمليات التنقيب، والثابت لدينا أن الحريق كان هائلا وقويا جدا حيث أنه أشعل المدينة بكاملها، ومازال رماد الحريق موجودا للآن بالإضافة إلى عظام للبشر وللحيوانات التي حرقت.

بقاء مدينة الأخدود بعظام كائناتها المحترقة

وأبدى آل مريح دهشته من بقاء المدينة والمباني كما هي منذ حريقها في النصف الأول من الميلاد، وقال: لقد اكتشفت أغرب سر خلال عملي والذي قارب على العشرين عاما ويتمثل في بقاء منطقة الأخدود الأثرية كما هي، فعظام الكائنات التي أحرقت من بشر وحيوانات لم نجدها في مدافن وبقيت كما هي، فراعينا ذلك ولم نضعها في مدافن بعدما أخذنا منها عينات لتحليلها لاكتشاف عمرها الزمني.

ويضيف: لقد أجرينا منذ فترة مجسات اختبارية أوضحت لنا أن

الأخدود ممتد إلى الألف الأول قبل الميلاد واستمر إلى الألف الأول الميلادي، وبعدها حدث الحريق وحادثة الأخدود. كما عثرنا على نقوش بالخط المسند، وهذا الخط له فترة معينة في التاريخ فهو يعاصر ممالك جنوب الجزيرة العربية.

سكانها لم يكونوا عمالقة

وعن جنس البشر الذين كانوا يعيشون هناك، يقول صالح آل مريح: "هم من جنوب الجزيرة العربية، ولا تختلف ألوانهم وبشرتهم عن القبائل الموجودة حاليا والساكنة في المنطقة، وذلك من خلال نقوش الأرجل والكفوف التي وجدناها، فلم نجد فرقا بين الإنسان القاطن الأخدود في تلك الفترة وبين الإنسان الحالي. وهذا ينفي الزعم بأنهم كانوا عمالقة أو ضخام البنية، لكنهم كانوا أشداء أقوياء. كما وجدنا بعض الحلي واعتمادهم على الفضة والبرنز والذهب في الزينة.

واصطحبنا آل مريح في زيارة لمنطقة الأخدود والتي يرتادها شهريا ٣٠٠٠ زائرا، وأول ما يصادفه الزائر أثناء زيارته للمنطقة، جدار دائري (سور) مشيد من الحجارة المربّعة، ومزيّن من الأعلى بشرفات يحيط بالمنطقة بكاملها، يشرف عليه حراس أمن يقومون بحراسة المنطقة الأثرية. وحول ما تحتويه منطقة الأخدود قال أنها "عبارة عن مبان متهدمة باق منها الأساسات والجدران، وبعض القطع الحجرية الضخمة كالرحى ومنطقه السوق التجاري. أيضا هناك بعض الكتابات والنقوش على الصخر بالخط المسند الذي كان يستخدمه عرب الجنوب. وينتشر في

المدينه الفخار الذي كان الأداة المستخدمة في ذلك الوقت.

بعد الدخول من البوابة تجد حديقة مزروعة بأشجار الأراك، وفور الانتهاء منها تجد أمامك قلعة كبيرة مهدمة أجزاؤها، وتقابلك أثناء الدخول من بابها نقوش ورسوم حيوانية وإنسانية، وأسماء لأشخاص نقشت على الجدار.

بعد ذلك تجد أمامك مكانا مرتفعا، تشاهد أثناء الوقوف عليه كافة المدينة وأجزاءها وأحياءها، وأثناء تنقلك في القلعة المهدمة تجد أماكن للتنقيب والحفريات التي تجرى لاكتشاف أثارها. وقد تتعثر فجأة لتجد أمامك عظاما مفحمة وهشة وآثار رماد في موقعها وعلى الجدر المحيطة.

وقد ذكرت قصة أصحاب الأخدود في القرآن الكريم في سورة (البروج) "حيث أقدم الملك (ذو نواس) وهو آخر ملوك الدولة الحميرية،على حفر أخدودٍ كبيرٍ جعل منه فرناً أحرق فيه آلاف المسيحيين ممن رفضوا التخلي عن ديانتهم والرجوع إلى عقيدتهم اليهودية السابقة".

القصة:

إنها قصة فتى آمن، فصبر وثبت، فآمنت معه قريته. لقد كان غلاما نبيها، ولم يكن قد آمن بعد. وكان يعيش في قرية ملكها كافر يدّعي الألوهية. وكان للملك ساحر يستعين به. وعندما تقدّم العمر بالساحر،

طلب من الملك أن يبعث له غلاما يعلّمه السحر ليحلّ محله بعد موته. فاختير هذا الغلام وأُرسل للساحر ليتعلم منه، وفي طريقه كان يمرّ على راهب. فجلس معه مرة وأعجبه كلامه. فصار يجلس مع الراهب في كل مرة يتوجه فيها إلى الساحر. وكان الساحر يضربه إن لم يحضر، فشكى ذلك للراهب؛ فقال له الراهب: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر.

وكان في طريقه في أحد الأيام، فإذا بحيوان عظيم يسدّ طريق الناس؛ فقال الغلام في نفسه: "اليوم أعلم أيهم أفضل، الساحر أم الراهب". ثم أخذ حجرا وقال: "اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس"، ثم رمى الحيوان فقلته، ومضى الناس في طريقهم؛ فتوجه الغلام للراهب وأخبره بما حدث؛ فقال له الراهب: "يا بني، أنت اليوم أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإذا ابتليت فلا تدلّ عليّ".

وكان الغلام بتوفيق من الله يبرئ الأكمه والأبرص ويعالج الناس من جميع الأمراض؛ فسمع به أحد جلساء الملك، وكان قد فَقَدَ بصره، فجمع هدايا كثيرة وتوجه بها للغلام، وقال له: "أعطيك جميع هذه الهداية إن شفيتني"؛ فأجاب الغلام: "أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك"؛ فآمن جليس الملك، فشفاه الله تعالى. فذهب جليس الملك، وقعد بجوار الملك كما كان يقعد قبل أن يفقد بصره؛ فقال له الملك: "من ردّ عليك بصرك؟" فأجاب الجليس

بثقة المؤمن: "ربّي". فغضب الملك وقال: "ولك ربّ غيري؟" فأجاب المؤمن دون تردد: "ربّي وربّك الله"؛ فثار الملك، وأمر بتعذيبه. فلم يزالوا يعذّبونه حتى دلّ على الغلام.

أمر الملك بإحضار الغلام، ثم قال له مخاطبا: "يا بني، لقد بلغت من السحر مبلغا عظيما، حتى أصبحت تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل". فقال الغلام: "إنني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى". فأمر الملك بتعذيبه، فعذّبوه حتى دلّ على الراهب.

فأُحضر الراهب وقيل له: "ارجع عن دينك". فأبى الراهب ذلك، وجيئ بمشار، ووضع على مفرق رأسه، ثم نُشِرَ فوقع نصفين. ثم أحضر جليس الملك، وقيل له: "ارجع عن دينك". فأبى، فَفُعِلَ به كما فُعِلَ بالراهب، ثم جيئ بالغلام وقيل له: "ارجع عن دينك"، فأبى الغلام؛ فأمر الملك بأخذ الغلام لقمة جبل وتخييره هناك، فإما أن يترك دينه أو أن يطرحوه من قمة الجبل.

فأخذ الجنود الغلام، وصعدوا به الجبل، فدعى الفتى ربه: "اللهم اكفنيهم بما شئت". فاهتزّ الجبل وسقط الجنود، ورجع الغلام يمشي إلى الملك؛ فقال الملك: "أين من كان معك؟" فأجاب: "كفانيهم الله تعالى"؛ فأمر الملك جنوده بحمل الغلام في سفينة والذهاب به لوسط البحر، ثم تخييره هناك بالرجوع عن دينه أو إلقائه. فذهبوا به، فدعى الغلام الله: "اللهم اكفنيهم بما شئت"، فانقلبت بهم السفينة وغرق من كان عليها إلا الغلام. ثم رجع إلى الملك؛ فسأله الملك باستغراب: "أين

من كان معك؟"؛ فأجاب الغلام المتوكل على الله: "كفانيهم الله تعالى"، ثم قال للملك: "إنك لن تستطيع قتلي حتى تفعل ما آمرك به"؛ فقال الملك: "ما هو؟"، فقال الفتى المؤمن: "أن تجمع الناس في مكان واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهما من كنانتي، وتضع السهم في القوس، وتقول "بسم الله ربّ الغلام" ثم ارمني، فإن فعلت ذلك قتلتني".

استبشر الملك بهذا الأمر، فأمر على الفور بجمع الناس، وصلب الفتى أمامهم، ثم أخذ سهما من كنانته، ووضع السهم في القوس، وقال: "باسم الله ربّ الغلام"، ثم رماه فأصابه فقتله؛ فصرخ الناس: "آمنا بربّ الغلام". فهرع أصحاب الملك إليه وقالوا: "أرأيت ما كنت تخشاه! لقد وقع، لقد آمن الناس". فأمر الملك بحفر شقّ في الأرض، وإشعال النار فيها، ثم أمر جنوده بتخيير الناس، فإما الرجوع عن الإيمان، أو إلقائهم في النار؛ ففعل الجنود ذلك، حتى جاء دور امرأة ومعها صبي لها، فخافت أن تُرمى في النار، فألهم الله الصبي أن يقول لها: "يا أمّاه اصبري فإنك على الحق".

قرية أصحاب السبت

ورد ذكر القصة في سورة البقرة، كما ورد ذكرها بتفصيل أكثر في سورة الأعرف الآيات ١٦٣-١٦٦، قال الله تعالى في سورة "الأعراف": "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"

وقال تعالى في سورة "البقرة": "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ".

وقال تعالى في سورة "النساء": "أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"

القصة:

أبطال هذه الحادثة، جماعة من اليهود، كانوا يسكنون في قرية

ساحلية، اختلف المفسّرون في اسمها، ودار حولها جدل كثير. أما القرآن الكريم فلا يذكر الاسم ويكتفي بعرض القصة لأخذ العبرة منها.

وكان اليهود لا يعملون يوم السبت، وإنما يتفرغون فيه لعبادة الله؛ فقد فرض الله عليهم عدم الانشغال بأمور الدنيا يوم السبت بعد أن طلبوا منه سبحانه أن يخصص لهم يوما للراحة والعبادة لا عمل فيه سوى التقرب لله بأنواع العبادة المختلفة. وجرت سنّة الله في خلقه، وحان موعد الاختبار والابتلاء. اختبار لمدى صبرهم واتباعهم لشرع الله، وابتلاء يخرجون بعده أقوى عزما وأشد إرادة، تتربى نفوسهم فيه على ترك الجشع والطمع، والصمود أمام المغريات.

لقد ابتلاهم الله عز وجل، بأن جعل الحيتان تأتي يوم السبت للساحل، وتتراءى لأهل القرية بحيث يسهل صيدها، ثم تبتعد بقية أيام الأسبوع، فانهارت عزائم فرقة من القوم واحتالوا الحيل – على شيمة اليهود – وبدءوا بالصيد يوم السبت. لم يصطادوا السمك مباشرة، وإنما أقاموا الحواجز والحفر، فإذا قدمت الحيتان حاوطوها يوم السبت، ثم اصطادوها يوم الأحد. كان هذا الاحتيال بمثابة صيد، وهو محرّم عليهم؛ فانقسم أهل القرية لثلاث فرق: فرقة عاصية تصطاد بالحيلة، وفرقة لا تعصى الله وتقف موقفا إيجابيا مما يحدث فتأمر بالمعروف وتنهى عن المكر وتحذّر المخالفين من غضب الله، وفرقة ثالثة سلبية لا تعصى الله لكنها لا تنهى عن المكر.

وكانت الفرقة الثالثة تتجادل مع الفرقة الناهية عن المنكر وتقول لهم: "ما فائدة نصحكم لهؤلاء العصاة؟ إنهم لن يتوقفوا عن احتيالهم، وسيصبهم من الله عذاب أليم بسبب أفعالهم. فلا جدة من تحذيرهم بعدما كتب الله

عليهم الهلاك لانتهاكهم حرماته".

وبصرامة المؤمن الذي يعرف واجباته، كان الناهون عن المكر يجيبون: "إننا نقوم بواجبنا في الأمر بالمعروف وإنكار المنكر، لنرضي الله سبحانه، ولا تكون علينا حجة يوم القيامة. وربما تفيد هذه الكلمات، فيعودون إلى رشدهم، ويتركون عصيانهم".

بعدما استكبر العصاة المحتالون، ولم تجد كلمات المؤمنين نفعا معهم، جاء أمر الله، وحل بالعصاة العذاب. لقد عذّب الله العصاة وأنجى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. أما الفرقة الثالثة التي لم تعص الله لكنها لم تنه عن المكر، فقد سكت النصّ القرآني عنها.

لقد كان العذاب شديدا، لقد مسخهم الله، وحوّلهم لقردة عقابا لهم لإمعانهم في المعصية.

وتحكي بعض الروايات أن الناهين أصبحوا ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فتعجبوا وذهبوا لينظروا ما الأمر، فوجدوا المعتدين وقد أصبحوا قردة. فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها نعم.

الروايات في هذا الشأن كثيرة، ولم تصح الكثير من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنها؛ لذا نتوقف هنا دون الخوض في مصير القردة، وكيف عاشوا حياتهم بعد خسفهم.

قصة أصحاب الكهف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بكتابه المبين هاديًا إلى الصراط المستقيم، جعل سبحانه أمثاله عِبَرًا لمن تدبَّرها، وأوامره هدًى لمن استبصَر، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرَّق فيه بين الحلال والحرام. خاطب به أولياءه ففهموا، وبيَّن لهم مراده فعلموا، فقرّاء القرآن حفظة علمه المخزون وخلفاء أنبيائه وأمنائه.

والواجب على من خصَّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حقَّ تلاوته، ويتدبّر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه، ويتبيَّن غرائبه؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، جعَلنا الله ممَّن يقوم بحقه، ويَرعاه حق رعايته، ويقوم بقسطه ولا يلتمِس الهدى من غيره. ولذكر القصص تأثير عظيم في نفوس المخاطَبين؛ لذا تجد القرآن الكريم والسنة النبوية مليئَين بالقصص، وقصص القرآن الكريم أحسن القصص؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، والهدف منه أخذ العبرة والعظة؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لذا فلا بدَّ من استخدام القصة في الحياة الدعوية؛ فلها أهمية كبيرة وفيها ثمار وفوائد كثيرة للدعوة إلى الله تعالى من خلالها.

وسنتناول في هذا المقال قصة من قصص القرآن الكريم، وهي قصة أصحاب الكهف، الفِتية المؤمنين الذين ثبتوا على دينهم، ونجّاهم الله تعالى من القوم الظالمين، وسنُبيِّن ما في القصة من العبرة، والأسوة الحسنة لنا جميعًا.

التعريف بأصحاب الكهف وسبب تسميتهم بهذا الاسم:

كان أصحاب الكهف أيام ملك اسمه "دقيوس"، ويقال "دقيانوس"، وكانوا بمدينة للروم اسمها "أفسوس"، وملكهم يَعبُد الأصنام، وكانوا فتية آمنوا بربّهم كما ذكر الله تعالى، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]؛ والرَّقيم: خبرُهم كُتِبَ في لوحٍ وجُعلَ على باب الكهف الذي أووا إليه، وقيل: كتبه بعض أهل زمانهم وجعله في البناء، وفيه أسماؤهم، وفي أيَّام مَن كانوا، وسبب وصولهم إلى الكهف.

وكانت عدَّتهم – فيما ذكر ابن عبَّاس – سبعةً وثامنهم كلبهم، وقال: "أنا من القليل الذين يعلمونهم"، وقال ابن إسحاق: "كانوا ثمانية"، فعلى قوله يكون تاسعهم كلبهم، وكانوا من الروم، وكانوا يَعبُدون الأوثان، فهداهم الله، وكانت شريعتهم شريعة عيسى عليه السلام.

وزعم بعضُهم أنهم كانوا قبل المسيح، وأنَّ المسيح أعلَمَ قومه بهم، وأن الله بعثهم من رقدتهم بعد رفع المسيح، والأول أصحُّ، وكان سبب إيمانهم أنه جاء حواريٌّ من أصحاب عيسى إلى مدينتِهم فأراد أن يدخلها، فقيل له: إنَّ على بابها صنمًا لا يدخلها أحد حتى يَسجُد له، فلم يدخلها وأتى حمَّامًا قريبًا من المدينة، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمَّام البَرَكة، وعَلِقَه الفتية، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة، حتى آمنوا به وصدَّقوه. وسُمُّوا أصحاب الكهف نسبة للكهف الذي استخفوا فيه، وظلوا فيه إلى أن شاء الله.

أسباب ترك أصحاب الكهف للقرية:

أما عن سبب ترك أصحاب الكهف للقرية، فإليك ما ورد في ذلك: قال ابن عباس رضي الله عنه: "إنهم قوم هرَبوا من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، فَمرُّوا براعٍ له كلب يتبعهم على دينهم، فآووا إلى كهف يتعبدون، وكان منهم رجل يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة إلى أن جاءهم يومًا فأخبرهم أنهم قد ذكرهم الملك، فتعوَّذوا بالله من الفتنة، فضَرب الله على آذانهم، وأمر الملك فسُدَّ عليهم الكهف، وهو يظنُّهم أيقاظًا، وقد توفي الله أرواحهم، وفاة النوم، وكلبُهم قد غشيَه ما غشيهم، ثم إن رجلين مؤمنَين يكتمان إيمانهما كتبا أسماءهم وأنسابهم وخبَرَهم في لوح من رصاص وجعلاه في تابوت من نحاس، وجعلاه في البنيان، وقالا: لعلَّ الله – عز وجل – يُطلِع عليهم قومًا مؤمنين فيعلمون خبرهم.

وقيل في سبب هروبهم: رُوي عن وهب بن منبه أنه جاء حواريُّ عيسى ابن مريم إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها، فقيل له: "إن على

بابها صنمًا لا يدخلها أحد إلا سجد له"؛ فكره أن يدخلها، فأتى حمَّامًا، وكان فيه قريبًا من تلك المدينة، فكان يعمل فيه، يؤاجر نفسه من صاحب الحمام، ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة، ودرَّ عليه الرزق، فجعل يعرض عليه الإسلام وجعل يَسترسِل إليه، وعلقه فتيةٌ من أهل المدينة وجعل يُخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة، حتى آمنوا به وصدقوه، وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة، وكان يشترط على صاحب الحمام أن الليل لي، لا تَحول بيني وبين الصلاة إذا حضَرت، فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة، فدخل بها الحمام، فعيَّره الحواري، فقال: "أنت ابن الملك وتدخل ومعك هذه الكذا!" فاستحيا، فذهب، فرجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك، وسبَّه وانتهره، ولم يلتفت حتى دخل، ودخلت معه المرأة فماتا في الحمام جميعًا، فأتى الملك فقيل له: "قتل صاحب الحمام ابنك، فالتُمسَ، فلم يُقدَر عليه فهرب"، قال: من كان يصحبه؟ فسمُّوا الفتية، فالتُمسوا فخرجوا من المدينة، فمروا بصاحب له في زرع له – وهو على مثل أمرهم – فذَكروا أنهم التُمسوا، وانطلق معهم ومعه الكلب، حتى آواهم الليل إلى الكهف، فدخلوه فقالوا: نَبيت ها هنا الليلة ثم نُصبح – إن شاء الله – فترون رأيكم، فضرب الله على آذانهم، فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم، حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، فكلما أراد رجل أن يدخل أرعب، فلم يُطِق أحد أن يدخل، فقال قائل: أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم باب الكهف، فدعْهم فيه يَموتوا عطشًا وجوعًا، ففعل، فغبروا – بعدما بُني عليهم باب الكهف – زمانًا بعد زمان.

أنبياء أهل القرية (أنطاكية)

أرسل الله رسولين لإحدى القرى لكن أهلها كذبوهما، فأرسل الله تعالى رسولا ثالثا يصدقهما، ويذكر لنا القرآن الكريم قصة رجل آمن بهم ودعا قومه للإيمان بما جاءوا بهن لكنهم قتلوه، فأدخله الله الجنة.

سيرتهم:

يحكي الحق تبارك وتعالى قصة أنبياء ثلاثة بغير أن يذكر أسماءهم. كل ما يذكره السياق أن القوم كذبوا رسولين فأرسل الله ثالثا يعززهما، ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية، وقد اختلفت فيها الروايات، وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. لكن الناس ظلوا على إنكارهم للرسل وتكذيبهم، وقالوا {قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ}.

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول؛ فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير.. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلىء بها الأسواق والبيوت؟!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير؛ فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة؛ فالرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي. النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، وهم بشر. فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه.

وفي ثقة المطمئن إلى صدقه، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل: إن الله يعلم، وهذا يكفي. وإن وظيفة الرسل البلاغ، وقد أدوه، والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف. وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار، والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله، فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله.

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير، ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر.

قالوا: إننا نتشاءم منكم، ونتوقع الشر في دعوتكم، فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم، ولن ندعكم في دعوتكم: {لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}. هكذا أسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الهداة تهديده، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة!

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق: {قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو

خرافة من خرافات الجاهلية. والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة، وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم، مرتبط بنواياهم وأعمالهم، متوقف على كسبهم وعملهم، وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً.

فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه، ومن خلال اتجاهه، ومن خلال عمله. وهو يحمل طائره معه. هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالأمكنة أو التشاؤم بالوجوه أو التشاؤم بالكلمات، فهو خرافة لا تستقيم على أصل!

وقالوا لهم: {أَئِن ذُكِّرْتُم} أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم! أفهذا جزاء التذكير؟ {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير، وتجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد، وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب!

ما كان من الرجل المؤمن:

لا يقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الأنبياء، إنما يذكر ما كان من أمر إنسان آمن بهم، آمن بهم وحده، ووقف بإيمانه أقلية ضعيفة ضد أغلبية كافرة. إنسان جاء من أقصى المدينة يسعى، جاء وقد تفتح قلبه لدعوة الحق؛ فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق.

وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في

ضميره فلم يطق عليها سكوتاً، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي آمن به. سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون.

وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

ويبدو أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم تكن له عشيرة تدافع عنه إن وقع له أذى، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها. فقال لهم: اتبعوا هؤلاء الرسل، فإن الذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً، إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟ وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم، فهم يدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح، ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض، فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق مستقيم.

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم، فلقد تساءل مع نفسه قبل إيمانه، لماذا لا أعبد الذي فطرني؟ والذي إليه

المرجع والمصير؟ وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن الفطرة مجذوبة إلى الذي فطرها تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها، والتوجه إلى الخالق هو الأولى.

ثم يبين ضلال المنهج المعاكس، منهج من يعبد آلهة غير الرحمن لا تضر ولا تنفع. وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين، لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب: {إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} هكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة، وأشهدهم عليها، وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها، أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون!

استشهاد الرجل ودخوله الجنة:

ويوحي سياق القصة بعد ذلك القوم الكافرين قتلوا الرجل المؤمن، وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة، إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه، ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة

الحق، متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل، نراه في العالم الآخر، ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}.

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين. ونرى الرجل المؤمن، وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين.

إهلاك أصحاب القرية بالصيحة:

هذا كان جزاء الإيمان، فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره؛ فهو ضعيف ضعيف: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ.. إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} لا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم، ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل!

تجاوز السياق أسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن.. لم

يذكر لنا السياق اسمه. اسمه لا يهم.. المهم ما وقع له.. لقد آمن بأنبياء الله.. قيل له ادخل الجنة. ليكن ما كان من أمر تعذيبه وقتله. ليس هذا في الحساب النهائي شيئا له قيمته. تكمن القيمة في دخوله فور إعلانه أنه آمن، فور قتله.

أنطاكية:

تقع أنطاكية في الشمال الغربي من سورية عند الطرف الجنوبي لسهل العمق يحدها شمالاً جبل سيلبيوس، وغرباً نهر العاصي. قام سلوقس بوضع أساساتها وأطلق عليها اسم أنطاكية تخليداً لوالده أنطيوخس. بنيت المدينة على أرض مستوية فيما بين النهر والجبل فأخذت شكل مستطيل طوله ميلان وعرضه ميل واحد..

أنطاكية: واحدة من أشهر المدن الست عشرة التي أنشأها في مستهل القرن الثالث عشر قبل الميلاد سلوقس الأول نيكاتور، وهو أحد القادة الذين خلفوا الإسكندر المقدوني، تخليداً لذكرى والده أنطيوخس. تقع في شمال غربي سورية على نهر العاصي قرب مصبّه. اتخذت عاصمة للسلوقيين بعد الحرب السورية الثالثة (٢٤٦– ٢٤١ ق.م) حين احتل البطالمة العاصمة سلوقية، ونقل سلوقس الثاني مركز الحكم إلى أنطاكية. احتلها الرومان سنة ٦٤ ق.م وقد عرفت ازدهاراً سياسياً وتجارياً وعمرانياً كبيراً. حافظت على شهرتها في العهد المسيحي حتى غدت إحدى أبرز أسقفيات الشرق إلى جانب القسطنطينية والإسكندرية، ومدرسة لاهوتية مهمة كان أشهر معلميها يوحنا فم الذهب. دمرها كسرى

أنو شروان سنة ٥٢٨ م وهجر أهلها قبل أن تجهز الزلازل على ما تبقى من مبانيها وسكانها. احتلها العرب المسلمون بقيادة عبيدة ابن الجراح سنة ١٦ هـ/ ٦٣٨ م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. انتزعها الامبراطور نقفور فوكاس سنة ٩٦٦ م وظلت في يد البيزنطيين حتى استعادها السلجوقيون سنة ١٠٨٤ م. استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٨ م وظلت خاضعة لحكم الفرنجة حتى استردها الظاهر بيبرس سنة ١١٧١ م. بقيت تحت حكم المماليك إلى أن سقطت بيد العثمانيين سنة ١٥١٧ م. غدت واحدة من مدن سورية بعد التحرر من الحكم العثماني وألحقت إدارياً بلواء إسكندرون الذي اقتطعته تركيا من سورية سنة ١٩٣٩م. يقصدها السياح بكثرة لأهميتها التاريخية والدينية.

يحيط بها سور على شكل شبه منحرف، له خمسة أبواب و(٣٦٠) برجاً على شكل أنصاف دوائر وقد بنيت وفق المخطط الشبكي الهبودامي المتوافق مع نظام البناء في مدن هلنستية أخرى في سورية مثل دورا أوروبوس وأفامية واللاذقية شوارعها مرصوفة، أهمها الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب، وكانت تزينه أروقة قائمة على أعمدة من الرخام. وسميت أيضاً بالمدينة الرباعية لأنها قد بنيت على أربع مراحل، إذ كانت مبنى حي كبير في كل مرحلة فأصبحت تضم أربعة أحياء منفصل بعضها عن بعض، وتؤلف في مجملها وحدة مخطط شبكي. ضمت المدينة عدداً من المعابد، منها معبد هرقل، ومعبد زيوس، الذي يقال بأن سلوقس شيده عندما أنشأ المدينة.

وقد زينت المعابد بأجمل التماثيل والزينة، كما كانت تضم مسرحاً وحماماتٍ ومتحفاً ودوراً للكتب ومجلساً للشورى وملعباً للألعاب الأولمبية، التي كانت تقام كل أربع سنوات، وقناطر كانت تجلب الماء من دفنة. كذلك بنيت فيها قلعة على قمة جبل سيلبيوس، وعلى الرغم من كثرة المنشآت والمباني والطرز المعمارية التي وجدت في عهد السلوقيين، إلا أنها ازدادت في عهد الرومان وامتدت على بعد ميل خارج الأسوار، فاضطر الإمبراطور الروماني لبناء سور جديد.

بابل.. مدينة السحر

كان للدين لدى الأقوام القديمة التي عاشت في بلاد الرافدين دور مهم في الحياة اليومية. وقد حكم ملوك العراق القدماء باسم الحق الإلهي باعتبارهم ممثلين حقيقيين للآلهة ونوابا عنهم، وكانت الآلهة متعددة وكان الملك يجمع السلطتين الدينية والدنيوية بيده، فهو القائد الأعلى في الحروب، والملك في وقت السلم ورئيس الكهنة وممثل الآلهة في إدارة المعابد ورعاية شؤون الرعية، وقد أصبح الملك بعد انتقال الحكم من السومريين إلى الأكديين الساميين ينظر إليه كإله بشري يحكم باسم الآلهة كما كان فرعون في مصر. لذا فقد وضع الملوك الأكديون أمام أسمائهم الإشارة الخاصة بالآلهة وهي (دنكو) السورية أو (أيلو– أو إيلو السامية) التي تعني الإله، وقد تغير الاعتقاد بعبادة الملك زمن سلالة حمورابي أو الدولة البابلية الأولى، وأصبح يمثل الآلهة في الأرض بالرغم من أنه بشر يكلم الآلهة ويراهم ويتلقى منهم الأوامر، ويؤيد ذلك ما نراه واضحا في مسلّة حمورابي المشهورة التي يقف فيها الملك أمام الإله (الشمس) إله الحق والعدالة.

وقد قال حمورابي إن الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق، وقد تغير مفهوم الملك في الدولة الآشورية وأصبح يعد الرئيس الأعلى للدولة والقائد للقوات وفارس الفرسان؛ فكانت مهمته سياسية وعسكرية ودينية، وكان يرى الآلهة في الرؤيا كما رأى آشور بانيبال الإلهة عشتار إلهة

أربائيلو عندما همّ بمحاربة الثائر العيلامي تي أومان. ونظرا لتعدد الآلهة فقد كان لكل إله عمله وأعياده الدينية المعينة. ولكن أهم هذه الأعياد هو عيد رأس السنة الجديدة أو عيد السنة البابلية، والذي يسمى بعيد (أكيتو).

الحكم:

كان الآشوريون قد صنعوا أكبر إمبراطورية في التاريخ حتى تلك الفترة، ولكن وبسبب نقص الخبرة في تدبير شؤون إمبراطورية بهذا الحجم من حيث المساحة ومن حيث تعدد الشعوب والمعتقدات والثقافات فقد بدأت تلك الإمبراطورية الآشورية بالتفكك وهذا ما أعطى الفرصة للكلدانيين لإقامة مملكة بابلية ثانية بقيادة نابو بولاصر (٦٢٥ – ٦٠٦ ق.م) الذي كان يحكم بابل والذي قام مع حلفائه الميديين في إيران بالزحف على آشور ودمروها سنة ٦١٤ ق.م، ثم تابع زحفه نحو نينوى سنة ٦١٢ ق.م فتمركز الجيش الآشوري في حاران تحت قيادة آشور باليط الذي استنجد بالفرعون نخو الذي لبى النداء ولكن دون جدوى فقد انكسر الجيش المصري بالقرب من حاران، وبذلك تفرقت وتشتت القوات الآشورية إلى الأبد وبدأت فترة الحضارة البابلية الحديثة (الكلدانية) بعد أن تولى الحكم نابو بولاصر سنة ٦٢٥ ق.م الحكم في بابل وأسس بذلك المملكة الكلدانية والتي وصلت إلى قمة مجدها في عهد نبوخذ نصر (٦٠٥– ٥٦٢ ق.م) وقد قام العاهل البابلي الجديد بعدة حملات عسكرية – قبل وبعد استلامه الحكم – منها ما نفذه على مملكة يهوذا التي سباها أربع مرات متوالية في غضون عشرين عام وكان

قد ابتدأها سنة ٦٠٦ ق.م – حين كان يشارك أباه الحكم – بحملة على مملكة يهوذا والذي كان يحكمها حين ذاك الملك يهوياكين (٥٩٨ – ٥٩٧ ق.م) حيث استولى من خلالها على كنوز الهيكل المقدس في أورشليم كما أنه قام باقتياد عدد من الأسرى كان من بينهم عائلة النبي دانيال الذي كان عمره قرابة الخمس سنوات حسب ما يذهب إليه بعض المؤرخين التوراتيين، وفي سنة ٥٩٧ ق.م أعاد الكرة ثانية وأخذ يهوياكين أسيرا ومعه قرابة عشرة آلاف من الأسرى وقام بتعين صدقيا (٥٩٧ – ٥٨٦ ق.م) ملكا بدلا عن يهوياكين وقد جاء في حولية تتحدث عن حملات نبوخذ نصر في بلاد الشام أنه في سنة ٥٨٦ في السنة السابعة لحكم نبوخذ نصر، قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في شهر مارس وأقام عليها ملكا جديدا اختاره وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل.

عصر الوركاء (الكتابة):

سمي هذا العصر نسبة إلى مدينة الوركاء في بلاد سومر، ظهرت عدة ميزات حضارية مهمة، فأصبحت المدن السومرية متطورة وواسعة تحوي مبان فخمة، كما استعمل الدولاب الدوَّار في صناعة الفخار، وأيضاً ظهر الختم الأسطواني، ثم ابتكار الكتابة الصورية واستخدامها في التدوين لأول مرة. وهكذا انتهت في منتصف هذا العصر العصور الحجرية ودخل العراق عصوره التاريخية بحدود (٣٥٠٠ ق.م).

التطور التاريخي:

البابليون (١٨٩٤-١٥٩٤ ق. م) بلغ عدد ملوك سلالة بابل والتي تعرف بـ (السلالة الآمورية) أحد عشر ملكاً حكموا ثلاثة قرون – في هذا العصر – بلغت حضارة العراق أوج عظمتها وازدهارها، وعمت اللغة البابلية، تكلماً وكتابة، المنطقة قاطبة.. وارتقت العلوم والمعارف والفنون، واتسعت التجارة اتساعاً لا مثيل له في تاريخ هذه المنطقة، وكانت الإدارة مركزية، والبلاد تحكم بقانون موحد سنة الملك حمورابي لجميع شعوبها.

حمواربي

حكم هذا الملك العظيم في بابل بين عامي ١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق . م وعندما تسلم الحكم كانت في البلاد قوى مختلفة ودويلات متفرقة تتنازع السلطة، فاستطاع أن يوحدها وأن يبني بها صرح إمبراطورية مترامية الأطراف ضمت جميع أنحاء العراق والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام ومناطق أخرى. لئن كان حمورابي شخصية عسكرية عالية القدرة، فإن الجانب الإداري والتنظيمي لديه لم يكن يقل عنه في الجانب العسكري.

إن مسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود، والمحفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس، تعتبر واحده من أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين والعالم. تحتوي مسلة حمورابي على ٢٨٢

مادة تعالج مختلف شؤون الحياة، فيها يجد القارئ تنظيماً واعياً لكل مجالات الحياة، وتحديداً وعلى جانب كبير من الدقة لواجبات الفرد وحقوقه في المجتمع، كل حسب وظيفته ومسؤوليته.

وتولى الحكم بعد وفاة حمورابي خمسة ملوك، آخرهم "سمسو ديتانا" حيث هاجم الحيثيون البلاد في زمنه بعد أن ضعفت حتى احتلوها، وخربوا العاصمة ونهبوا كنوزها، ثم قفلوا راجعين إلى جبال طوروس، وكان ذلك في عام ١٥٩٤ ق. م.

«بابل».. مدينة علَّمت الناس السحر

قال الله تعالى: «واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت»، «البقرة ١٠٢»، وعلى الرغم من تعدد أسماء بابل في الكثير من بلاد الغرب والشرق فقد أجمع المؤرخون على أن بابل المذكورة في القرآن الكريم موجودة في العراق، وقد بنيت على عقود الحجر النفيس المقدم هدايا للملك، وفي الزراعة كانت عبارة عن طبقات تصلح لمختلف النباتات والأشجار، والماء يرفع ويخزن في الطبقات العليا بصهاريج لسقاية الأشجار.

وتتصل الطبقات مع بعضها بعضاً بدرج واسع، وعندما يأتي الربيع وتزهر وتورق الأشجار والورود في هذه الارتفاعات في وسط أجواء الحرارة العالية تكون هذه الحدائق جنة في الأرض تنشر الرائحة العطرة والبرودة.

ووضع البابليون قوانين لعلم السحر والشعوذة الذي كانت له مكانة لدى أهل بابل والشرق في العصور القديمة، وكان رجال الكهنوت أعلى مكانة من رجال الدين، فكانوا يقيمون طقوساً خاصة بذلك، وكانت الشياطين تلعب دوراً بارزاً في السحر حتى إن الساحر كان يقارع الشياطين الشريرة الضارة، واستخدم البابليون السحر في الطب وشفاء الأمراض.

وفي سبب تسميتها اختلف المفسرون والعلماء، قيل إن كلمة بابل تعني "باب الإله"، وصارت بابل بعد سقوط السومريين قاعدة إمبراطورية بابل، وقد أنشأها حمورابي المشرع الأول في التاريخ الإنساني، وفي تفسير ابن كثير قيل: إن الجن كان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل به، فكفر بعضهم وسبوه وظلوا يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم (واتبعوا ما تتلو الشياطين).

ومن تدبرنا لما جاء في سورة البقرة، وما جاء في قصة داود وسليمان عليهما السلام نستنتج أن نبي الله سليمان عليه السلام هو من أنبياء بني إسرائيل، ورث أباه داود عليه السلام في الحكم، فكان ملكاً على بيت المقدس، وعاش عليه السلام في القرن التاسع قبل الميلاد؛ فأبوه داود عليه السلام كان جندياً في جيش طالوت، وطالوت هو ملك بني إسرائيل، واستطاع داود أن يجمع شمل قبائل بني إسرائيل، ويوحدهم

تحت رايته بحدود عام ١٠٤٠ قبل الميلاد، ليسترد لهم حقوقهم من الفلسطينيين الذين تمكنوا من هزيمتهم في إحدى المعارك شر هزيمة.

ذاعت شهرة داود عليه السلام بين بني إسرائيل وعند ملكهم طالوت بعدما تمكن من قتل جالوت في مبارزة عجز عنها بنو إسرائيل كافة، ثم أصبح داود عليه السلام ملكاً على بني إسرائيل وعمره ٣٠ عاماً وحكم مدة ٤٠ عاماً، ومن خلال هذه الأحداث يتبين لنا أن داود عليه السلام أصبح ملكاً على بني إسرائيل بعد عام ١٠٤٠ قبل الميلاد بسنوات معدودة وما دام حكمه قد استمر أربعين عاماً، فبهذا يكون عهد سليمان عليه السلام في حدود النصف الثاني من القرن العاشر للألف الأولى قبل الميلاد أي بحدود ١٠٠٠– ٩٥٠ قبل الميلاد.

شواهد في الحرم المكي تدل على الإعجاز الإلهي..

مكة المكرمة أجمل بقاع الأرض وأطهرها، وخير البلدان وأشرفها، هي حياة القلوب ومئزر الإيمان، وُلد فيها الحبيب صلى الله عليه وسلم، وأشرق من رباها نور الوحي فبدّد الظلام، هي أول ما خلق الله من الأرض، وفيها أول بيت للناس مباركاً وهدىً للعالمين، بها تطوف القلوب إلى الله شوقاً، وتسعى الأنفس بين الصفا والمروة عشقاً، لا يعضد شجرها ولا يقتل طيرها ولا يفلح عدوها، هي: مكة المكرمة، وبكة، والمقدسة، والحاطمة للأعداء، والبيت العتيق، والبلد الأمين، وأم القرى.

وقد اختار الله سبحانه وتعالى الحرم المكي لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، وجعل فيه العديد من الشواهد الحسية الدالة على سر إعجازه الإلهي ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] تدعيما لما أنزل في محكم كتابه من أن الكعبة المشرفة هي أول بيت وضع للناس ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، بمعنى أن أحداً من الناس لم يضعه في الأرض، وإنما وضعته الملائكة تهيئة لمقدم أبينا آدم عليه السلام، ولذا سمي بالبيت العتيق، وهذا وتأكيد لما نطق به النبي المصطفي صلى الله عليه وسلم من أن أرض مكة المكرمة وحرمها الشريف هي أقدم بقاع اليابسة على الإطلاق، وأن منها دحيت الأرض (بمعنى مُدَّت بقية اليابسة

ومن الشواهد الحسية التي تدل على إعجاز الله في الحرم المكي:

١ – توسط مكة المكرمة لليابسة:

الأرض هي مركز السماوات السبع بنص الآية الكريمة التي يقول فيها الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه وأقطار السماوات على ضخامتها تنطبق على أقطار الأرض على ضآلتها النسبية بحسب نص الآية الكريمة، فلا بد أن تكون الآية هي مركز الكون. ويدعم هذا الاستنتاج ورود الإشارة بذكر السماوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة ومقابلة السماوات بالأرض في عشرات الآيات القرآنية الأخرى.

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت المعمور بأنه في السماوات السابعة على جبال الكعبة تماماً حتى لو خرّ لخرّ فوقها، كل هذه النصوص تؤكد مركزية الأرض للسماوات السبع، فالحرم المكي مركز بين السماوات السبع والأرضين السبع كما وصفه المصطفي صلى الله عليه وسلم.

٢ – انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط مكة المكرمة:

إن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول ينطبق فيها الشمال المغناطيسي الذي تحدده الإبرة الممغنطة في

البوصلة مع الشمال الحقيقي الذي يحدده النجم القطبي، ومعنى ذلك أنه لا يوجد أي قدر من الانحراف المغناطيسي على خط طول مكة المكرمة، بينما يوجد عند جميع خطوط الطول الأخرى.

٣ ـ ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة:

الكعبة المشرفة مبنية بأركانها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً، فركنها الشامي في اتجاه الشمال الحقيقي، ويقابله في اتجاه الجنوب الحقيقي تماماً الركن اليماني وركن الحجر الأسعد يواجه الشرق الحقيقي تماماً ويقابله الركن المصري في اتجاه الغرب الحقيقي تماماً. وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة في زمن موغل في التاريخ كالذي بنيت فيه الكعبة المشرفة ينفي إمكانية كونه عملاً بشرياً.

٤ ـ الحجر الأسود من أحجار السماء:

روى أبي بن كعب عن النبي أنه قال: "الحجر الأسود نزل به ملك من السماء". وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم". كذلك أخرج كل من الترمذي وأحمد والحاكم وابن حيان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة".

وحينما قرأ المستشرقون هذه الأحاديث النبوية ظنوا الحجر الأسود قطعة من البازلت الذي جرفته السيول من الحرات المجاورة وألقت به

إلى منخفض مكة المكرمة، ومن أجل إثبات ذلك استأجرت الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية ضابطاً بريطانياً باسم ريتشارد فرانسيس بيرتون وجاء إلى الحجاز في هيئة حاج أفغاني، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي "١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م" بهدف سرقة جزء من الحجر الأسود والفرار به إلى بريطانيا، وبالفعل تم له ذلك، وبدراسة العينة المسروقة ثبت أنها من أحجار السماء لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص، وكان هذا الاكتشاف سبباً في إسلامه، وقد سجل قصته في كتاب من جزءين بعنوان: "رحلة إلى مكة"، وتوفي بيرتون في سنة ١٨٨٠م/ ١٣٠٨هـ.

٥ ـ مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم يحمل طبعة قدميه :

إن كلمة المقام (بفتح الميم الأولى وضمها) تأتي بمعنى "الإقامة" من الفعل "أقام"، "يقيم"، "إقامة"، و"مقاماً" ومن هنا أخذ التعبير القرآني "مقام إبراهيم" على أنه الحرم المكي بكل حدوده، ولكن من مدلول الكلمة أيضاً "موضع القيام" من الفعل "قام" "يقوم" "مقاماً"، ولذلك فهم تعبير "مقام إبراهيم" بالصخرة التي "قام" عليها وهو يرفع القواعد من البيت، وبهذا المفهوم فإن هذه الصخرة تحمل آية بينة وهي أنه على الرغم من صلادتها "صلابتها" الشديدة فإنها تحمل طبعة غائرة لقدمي أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ولين هذه الصخرة الصلدة إلى الحد الذي يمكنها من حمل طبعة قدمي هذا النبي الكريم معجزة بكل المقاييس العلمية يقف العلم عاجزاً أمام إمكانية تفسيرها، لأن المعجزات

خوارق للسنن والقوانين، ولذلك لا يمكن للعلم المكتسب أن يفسرها، وهي آية محسوسة لكل ذي بصيرة.

٦ - بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي:

إن تدفق الماء من بئر زمزم على مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، من قلب صخور نارية، أو متحولة شديدة التبلور هو أمر لافت للنظر، على الرغم من طمرها وحفرها لعدة مرات، ولم يعرف مصدر هذا الماء المتدفق إلى البئر إلا بعد حفر الأنفاق حول مكة المكرمة، حين أدرك العاملون في حفر تلك الأنفاق أن الماء يتدفق من تشققات شعرية دقيقة تمتد لمسافات بعيدة خارج حدود مكة المكرمة وفي جميع الاتجاهات من حولها، وهذه الملاحظة تؤكد وصف المصطفي صلى الله عليه وسلم لهذه البئر المباركة بأنها نتجت عن طرقة شديدة وصفها بقوله الشريف: "هي هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل"، لأن الهزمة في اللغة هي الطرقة الشديدة.

وبئر زمزم هو إحدى الآيات المادية الملموسة الدالة على كرامة المكان ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ماءها بقوله: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم وشفاء سقم"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ماء زمزم لما شرب له".

٧ - "ومن دخله كان آمناً"

ذكر ابن كثير في تفسيره ما نصه: "ومن دخله كان آمناً" يعني حرم

مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس قال: "من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوي ولا يطعم، ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه". قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره في أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك؛ ففي الصحيحين، واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله يوم القيامة، وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام يحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه" فقال العباس: "يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم"، فقال: "إلا الأذخر".

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم

يقول: "لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة"، وعن عبد الله بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: "والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت".

وقد لاحظ المراقبون أن الحيوانات الضارية لا تصطرع في الحرم المكي، ولا يؤذي بعضها بعضنا، بل تخالط من الحيوانات ما تعودت على افتراسه خارج الحرم المكي ولا تتعرض له فيه أبداً، كما لاحظ المراقبون أن الطيور عادة لا تعلو الكعبة المشرفة، بل تنحرف عنها كلما طارت في اتجاهها وكأنها هي الأخرى في طواف حولها، ويروي لنا التاريخ أن كل جبار قصد الحرم المكي بسوء أهلكه الله، ولم يمكنه من ذلك، كما حدث مع أصحاب الفيل.

وربنا ـ تبارك وتعالى ـ يقرر حمايته لبيته العتيق بقوله عز من قائل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] وتحقيقاً لهذا الوعد الإلهي تُعجّل العقوبة لمن انتهك حرمة الحرم المكي، لذلك قال المصطفي صلى الله عليه وسلم: "الدجال يطوي الأرض كلها إلا مكة والمدينة". وتقدر مساحة الحرم المكي بحوالي ٦٠٠ كلم مربع على هيئة سلسلة من الأودية والمنخفضات تمتد من مكة المكرمة إلى ساحة عرفات شرقاً مروراً بكل من وادي منى ووادي المزدلفة، ولهذا الحرم حدود حددها ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم عليه السلام وحملها جبريل عليه السلام إلى أبي الأنبياء إبراهيم، على نبينا وعليه من

الله السلام، وقد نصبت على هذه الحدود أعلام من جهات خمس تعتبر المداخل الرئيسية للحرم المكي، وهذه الأعلام على هيئة أحجار مرتفعة منصوبة على جانبي كل طريق من الطرق المؤدية إلى منطقة الحرم المكي.

إن هذه الشواهد الدالة على عظمة الله وسر إعجازه تبرهن وتؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحفظه بلغة وحيه . اللغة العربية . على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية دون إضافة أو حذف، وتعهد الله تعالى بهذا الحفظ تعهداً مطلقا إلى ما شاء الله، حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين بأنه كلام رب العالمين.

إن الصفا والمروة من شعائر الله

قوله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أَو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم} (البقرة:١٥٨) فقد كان السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج منذ زمن إبراهيم عليه السلام؛ تذكيرًا بنعمة الله على هاجَر وابنها إسماعيل، إذ أنقذه الله من العطش، كما ثبت ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: (فانطلقتْ كراهية أن تنظر إليه – ابنها – فوجدتْ الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من أحد، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا وأتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فلذلك سعى الناس بينهما) رواه البخاري.

وعند البخاري أيضًا من حديث أنس بن مالك، وقد سُئل عن الصفا والمروة، فقال: (كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله}). وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، استدلالاً بهذه الآية، وبفعله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ففي "صحيح مسلم" من حديث جابر يصف فيه حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ولما فرغ من طوافه بالبيت

عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} ثم قال: أبدأ بما بدأ الله به) وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام، قوله: (لتأخذوا عني مناسككم) رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد في "المسند" بسند حسن، عن ابن محيصن رضي الله عنه، قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه، وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي، يدور به إزاره وهو يقول: اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي)، وقوله جل ثناؤه: {فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما}.

(الجُناح) الإثم، اشتق من جَنَحَ، إذا مال، وظاهر الآية أن السعي بين الصفا والمروة ليس بواجب، وليس الأمر كذلك، وقد بيَّن حديث عائشة رضي الله عنها المقصود من الآية، فيما رواه مالك من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنهما، قال: قلت لـ عائشة – وأنا يومئذ حديث السن –: أرأيتِ قول الله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت رضي الله عنها: كلا، لو كان كما تقول لكانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما؛ إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يُهلِّون لمناة (اسم صنم) وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله: {إن الصفا والمروة من شعائر اللَّه} فالآية – كما دل حديث عائشة رضي الله عنها – نزلت لدفع وَهْمِ مَن توهَّم، وتحرَّج من المسلمين عن الطواف بين الصفا والمروة؛ لكونهما

في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفي الله تعالى الجُناح لدفع هذا الوهم، لا لأن السعي بينهما غير لازم، كما قد يتبادر من ظاهر الآية.

وفي رواية أخرى لـ عائشة رضي الله عنها، ثبتت في "الصحيحين" قالت: (قد سنَّ رسول الله الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما). ثم إن تقييد نفي (الجُناح) في الآية، فيمن طاف للحج أو العمرة، فيه دلالة على أنه لا يُتطوع بالسعي مفردًا، إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، وهذا بخلاف الطواف بالبيت، حيث يُشرع الطواف فيه مفردًا عن الحج والعمرة.

وقوله جلَّ من قائل: {ومن تطوع خيرا} أي فعل طاعة {فإن الله شاكر عليم} أي مثيب على الطاعة لا تخفي عليه؛ فبين سبحانه أن الخير كل الخير فيما يفعله العبد من الطاعات، والقربات التي تقربه إلى ربه، وذلك أنه كلما ازداد العبد في طاعة خالقه ازداد خيره وكماله، ورُفعت درجته عند الله. على أن في الآية دلالة أخرى، دلَّ عليها تقييد التطوع بالخير، إذ يُفهم من هذا التقييد أن من تطوع بالبدع، وبغير ما شرعه الله سبحانه، أو فَعَلَ ما أمره الله على غير الصفة التي شرعها الله، فإن عمله غير مقبول، ولا يحصل له من الأجر سوى العناء، ومن كانت حاله كذلك، فهو داخل في قوله تعالى: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} (الكهف:١٠٣-١٠٤)، وقوله تعالى: {فإن الله شاكر عليم}

هذا بيان من الله سبحانه أنه يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم

عليه العظيم من الأجر؛ كما أن في الآية إشارة إلى أن من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، وأنه سبحانه عليم بأحوال خَلْقه، ومن يستحق الثواب منهم، ومن يستحق العقاب. ثم إن الآية بمجملها تدل على أن الساعي بين الصفا والمروة ينبغي أن يستحضر فقره لخالقه، وذلَّه بين يديه سبحانه، وحاجته إلى الله تعالى في هداية قلبه، وصلاح أمره، وغفران ذنبه، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه، قال سبحانه: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد} (فاطر:١٥)

(الصفا) في الأصل جمع صفاة، وهي الحجر العريض الأملس، والمراد به هنا مكان عال في أصل جبل أبي قبيس جنوب المسجد قريب من باب الصفا، وهو شبيه بالمصلى طوله ستة أمتار، وعرضه ثلاثة، وارتفاعه نحو مترين كذلك كان.

و(المروة) في الأصل واحد المرو، وهي حجارة بيض، والمراد هنا مكان مرتفع في أصل جبل قعيقعان في الشمال الشرقي للمسجد الحرام قرب باب السلام وهو شبيه بالمصلى، وطوله أربعة أمتار، في عرض مترين، وارتفاع مترين، والطريق الذي بين الصفا والمروة هو (المسعى) مكان السعي، والمسعى الآن داخل في المسجد الحرام نتيجة التوسعة السعودية سنة ١٣٧٥هـ.

والسعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج عند غير أبي حنيفة والصحيح عند أحمد. وعدد مرات السعي المطلوبة سبع، على أساس أن الذهاب من الصفا إلى المروة يعتبر مرة، والعودة من المروة إلى الصفا يعتبر مرة، وهكذا حتى تتم سبعة أشواط تبدأ بالصفا وتنتهي بالمروة. ومن لم يسع

سعي الركن بطل حجه إن كان حاجا، وعمرته إن كان معتمرا عند القائلين بأن السعي ركن، وأما القائلون بوجوبه كأبي حنيفة والصحيح عند أحمد، فإن تركه يجبر بدم..

وقد جاء حديثان يقول النبي في أحدهما: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" أخرجه الشافعي وأحمد والدارقطني، ويقول في الثاني: "كتب عليكم السعي فاسعوا" أخرجه أحمد.. والحديثان ضعيفان، ولكن ثبت بالأدلة الصحيحة سعي النبي وأصحابه ومن بعدهم؛ فالسعي وارد في الكتاب والسنة، وعليه إجماع الأمة، والخلاف في حكمه وليس في ثبوته.

قال الترمذي: اختلف أهل العلم فيمن لم يطف بين الصفا والمروة حتى رجع فقال البعض: إن لم يطف بينهما حتى خرج من مكة، فإن ذكر وهو قريب منها رجع فطاف بينهما، وإن لم يذكر حتى أتى بلاده أجزأه وعليه دم. وقال بعضهم: لا يجزئه لأن السعي بينهما ركن لا يجوز الحج إلا به.

شروط السعي بين الصفا والمروة

(١) كونه بعد الطواف؛ فيشترط أن يأتي السعي بعد الطواف بالبيت، ولو كان الطواف تطوعا، فإذا لم يتقدمه طواف فإن هذا السعي لا يعتبر ولا يحسب في مناسك الحج، ولا يكفي عن السعي الذي هو ركن أو واجب، لأن السعي ليس عبادة مستقلة مثل الطواف إنما هو عبادة تابعة للطواف، ولذا لا يستحب السعي وحده ولا يطلب، إنما الذي يستحب الإكثار منه هو الطواف.

(٢) البدء بالصفا والختم بالمروة، شرط لصحة السعي عند الثلاثة

وبعض الأحناف والمختار عند الأحناف أن ذلك واجب يجبر بدم. قال الترمذي: "والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة فإن بدأ بالعكس لم يجز".

(٣) السعي في المسعى جميعه، والمراد من ذلك ألا يترك أي جزء من المسافة بين الصفا والمروة بغير سعي فيه، فإن ترك جزءا ولو صغيرا بطل سعيه، حتى لو كان راكبا اشترط أن تضع الدابة حافرها على الجبل، ويجب على الماشي أن يلصق رجله بالجبل بحيث لا يبقي بينهما فرجة عند الشافعي. وقال غيره: لا يطلب إلصاق الرجل بجبل الصفا أو جبل المروة، إنما المطلوب هو ما يعتبر إتماما عرفا.

(٤) الموالاة في السعي: تشترط الموالاة في السعي بين الصفا والمروة، من غير فصل كثير بين الشوط والذي بعده، وذلك عند مالك، ورواية عن أحمد فإن جلس خفيفا بين أشواطه للراحة فلا شيء فيه ولا بأس، وإن طال الجلوس والفصل، أو فعل ذلك عبثا فإن عليه أن يبتدئ السعي من الأول، ولا يقطع السعي لإقامة صلاة بالمسجد إلا إن ضاق وقتها فيصليها ويبني، ويجوز قطع السعي بسبب احتقان بالبول وغيره، وقال الأحناف والشافعي والجمهور: الموالاة بين الأشواط في السعي سنة، وهو ظاهر مذهب أحمد، فلو وجد فصل بين الأشواط لا يضر، قليلا كان أو كثيرا. ومعلوم أن السعي يكون في المسعى المخصص لذلك وإلا لم يجز ولم يصح.

المسجد الحرام

المسجد الحرام هو أعظم مسجد في الإسلام ويقع في قلب مدينة مكة، تتوسطه الكعبة المشرفة التي هي أول بناء وضع على وجه الأرض، وهذه هي أعظم وأقدس بقعة على وجه الأرض عند المسلمين، وهو قبلة المسلمين في صلاتهم.. سُميّ بالمسجد الحرام لحرمه القتال فيه منذ دخول النبي المصطفي إلى مكة المكرمة منتصرا. ذكر القرآن "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ" آل عمران ٩٦ ويؤمن المسلمون أن المسجد الحرام هو المكان الذي عرج بالنبي منه إلى المسجد الأقصى، كما جاء في آية الإسراء في القرآن: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". والمسجد الحرام هو أول المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال؛ فقد قال نبي الإسلام محمد: لا تُشَدُّ الرِّحَال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى.

قبل الإسلام

حسب الاعتقاد الإسلامي، يرجع بناء الكعبة إلى عهد آدم، إلا أنها دمرت عبر السنين ولم يبق مكانها شيء إلى أن أوحى الله إلى إبراهيم بمكان البيت. ذكر القرآن: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك

بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود).

وهكذا أمر الله إبراهيم ببناء البيت الحرام، وذكر القرآن الكريم بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للكعبة، ولقد جاءه جبريل بالحجر الأسود ولم يكن في بادئ الأمر أسود بل كان أبيضاً يتلألأ من شدة البياض وذلك لقول الرسول محمد (ص) (الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك) حديث.

ثم أعيد بناء الكعبة في عهد قريش، بعد عام الفيل بحاولي ثلاثين عاماً بعد أن حدث حريق كبير بالكعبة نتج عن محاولة امرأة من قريش تبخير الكعبة فاشتعلت النار وضعف البناء ثم جاء سيل حطم أجزاء الكعبة فأعادت قريش بناء الكعبة.

عصر الرسول محمد (ص)

بعد أن فتح الرسول محمد مكة أزال ما كان على الكعبة من أصنام، وكان يكسوها ويطيبها، ولكنه لم يقم بعمل تعديل على عمارة الكعبة وما حولها كما لم يرجع الكعبة إلى سابق عهدها في أيام إبراهيم.

عهد الخلفاء الراشدين

بقي المسجد الحرام على حاله طوال خلافة أبو بكر ثم العام السّابع الهجري، شعر عمر بن الخطاب بحاجة المسلمين إلى توسعة المسجد الحرام بعد أن زاد عدد الحجاج إلى المسجد الحرام سنوياً

فاشترى البيوت المجاورة للمسجد، ووسّع بها ساحة المطاف وجعل لها أبوابًا يدخل الحجّاج والمعتمرون منها للطّواف حول الكعبة المشرفة. وكان عمر هو أول من أخرج مقام إبراهيم عن جدار الكعبة فقد كان ملاصقاً فيها، وذلك ليسهل الطواف وحماية لمقام إبراهيم. ثم في عهد عثمان بن عفان سنة ٢٦ هـ، قام عثمان بتوسعة المسجد مرة أخرى كما بنى للمسجد أروقة وكان أول من بنى للمسجد الحرام أروقة.

أبواب الحرم

كان أول باب للمسجد الحرام هو باب بني شيبة، وهو منسوب إلى شيبة بن عثمان الحجبي سادن الكعبة المشرفة لأنه كان بجوار بيته ويقال لهذا الباب: "باب السلام"، وقد كان النبي محمد (ص) يدخل من هذا الباب لأنه مواجه للكعبة أمام مقام إبراهيم.

ويبلغ عدد أبواب المسجد الحرام حالياً (٧٩ باباً) منها أربعة أبواب رئيسية وأبواب فرعية منها: باب أجياد، وبلال، وحنين، وإسماعيل، والصفا، وبني هاشم، وعلي، والعباس، وباب النبي، والسلام، وبني شيبة، والحجون، والمعلاة، والمدعى، والمروة، والمحصب، وعرفة، ومنى، والقرارة، والفتح، وباب عمر، والندوة، والشامية، والقدس، والمدينة، والحديبية. وقد تولت رئاسة الحرمين الشريفين وقوى أمن الحرم الإشراف على هذه الأبواب ومتابعتها وتنظيم الحركة حال الدخول والخروج.

بوابو البيت الحرام

البوابون جمع (بوّاب) وهو من يقوم بالجلوس عند باب المسجد الحرام لحراسته من كل مكروه ومد يد العون لمن يحتاج ذلك، وعادة ما يكون البوابون من عامة الناس إلا أنه في سنة (٨٣٠هـ) صدر مرسوم بفتح أبواب المسجد الحرام وعزل البوابين الذين كانوا من القضاة والفقهاء وأن يوضع مكانهم الفقراء والمساكين الذين لا حرفة لهم.

*المدينة المنورة" أول عاصمة إسلامية

عاش الأوس والخزرج في (يثرب)، ولم تكن مدينة مشهورة. بهجرة النبي (ص) والمؤمنين تكونت فيها دولة حقيقية وأصبح اسمها (المدينة)، ثم بعد قرون ومع تقديس النبي أصبح اسمها (المدينة المنورة). كلمة (يثرب) جاءت مرة واحدة في قول المنافقين وقت حصار المشركين للمدينة: (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.. وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً" (١٣الأحزاب) ما عدا ذلك كان الاسم هو (المدينة).

جاء هذا في نفس سورة الأخزاب في قوله جل وعلا: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠)) وفي سورة التوبة، وهى من أواخر ما نزل، في قوله جل وعلا: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)، (مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (١٢٠)

كان الاسم الأول هو يثرب، وظل هذا ساريا حتى موقعة الأحزاب، وبه قال المنافقون: (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) ثم توارى اسم يثرب وساد مكانه اسم (المدينة) حتى قال المنافقون: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (٨) (المنافقون) أي استعملوا الاسم الجديد الذي ساد.

أما المدينة فقد ورد ذكرها في كتاب الله أربع مرات:

يقول الله تعالى في سورة التوبة: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين)، «الآية ١٢٠»

المدينة المذكورة في تلك الآيات هي المدينة النبوية أو المدينة المنورة والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم أربع مرات حيث ورد اسمها في سورة التوبة في قوله تعالى (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم)، «الآية١٠١»، وأيضاً في سورة التوبة في قوله تعالى (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله)، «الآية ١٢٠»، كذلك ورد ذكرها في سورة الأحزاب في قوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في

المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلى قليلا) «الآية ٦٠»، وفي سورة المنافقون في قوله تعالى (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) «الآية ٨».

الهجرة النبوية

والمدينة المنورة تأسست قبل الهجرة النبوية بأكثر من ١٥٠٠ عام وتضم أقدم ثلاثة مساجد في العالم، وهي من أهمها عند المسلمين، وهي: المسجد النبوي، ومسجد قباء، ومسجد القبلتين، وتستمد المدينة المنورة أهميتها عند المسلمين من هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إليها وإقامته فيها طيلة حياته، وكانت قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها تسمى «يثرب»، وأطلق عليها اسم «مدينة الرسول» بعد أن هاجر إليها الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم وفي «العصر الجاهلي» عرفت هذه المدينة باسم يثرب على اسم زعيم قبيلة «يثرب بن قانية بن مهلال»

وفي المدينة قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها أيضاً قبور أول ثلاثة من الخلفاء الراشدين. وزيارة المدينة ليست فريضة ولكن على الأغلب بعد زيارة مكة يقوم الحجاج بزيارة المدينة والصلاة هناك عند قبر الرسول والخلفاء الراشدين.

طابة وطيبة

وورد في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غيّر اسمها من يثرب إلى المدينة، ونهى عن استخدام اسمها القديم، فقال من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل هي طابة وهي طيبة.. ويضيف د. الحسيني: سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء أخرى في عدد من الأحاديث النبوية أهمها طابة وطيبة، ولقد نالت المدينة المنورة حباً كبيراً من النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت لها المكانة العالية الجلية في قلبه مما جعل المسلمين يكنون لها كل الحب محبة لله ولرسوله واتباعاً للسنة المطهرة لأن الله تعالى قد فرض علينا محبة ما يحبه رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وروى الإمام أحمد في مسنده: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة»، كما ذكر البخاري في تاريخه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال يثرب مرة فليقل المدينة عشر مرات»، وفي هذا القول الكريم مدلول على أن تسمية يثرب إنما جاءت على عهد اليهود الذين سموها بها وهي تعني الفساد.

معالم

ومن أهم معالم المدينة المنورة معلمان مهمان هما: المساجد السبعة، وهي من أهم المعالم التي يزورها القادمون إليها، وهي مجموعة مساجد صغيرة عددها الحقيقي ستة وليس سبعة ولكنها اشتهرت بهذا الاسم، نظراً لإضافة البعض لمسجد القبلتين ضمن هذه المساجد، لأن

الذي يزورها يزور ذلك المسجد أيضاً في نفس الرحلة فيصبح عددها سبعة، وتقع هذه المساجد الصغيرة في الجهة الغربية من جبل سلع عند جزء من الخندق الذي حفره المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم للدفاع عن المدينة المنورة عندما زحفت إليها قريش والقبائل المتحالفة معها في السنة الخامسة للهجرة، ويُروى أنها كانت مواقع مرابطة ومراقبة في تلك الغزوة وقد سُمي كل مسجد باسم من رابط فيه عدا مسجد الفتح الذي بُني في موقع قبة ضُربت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

بيت المقدس

مكانة القدس في القرآن الكريم والسنة الشريفة

حفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالقدس ما لم يحفلْ بمكانٍ آخر بعد المسجد الحرام. وسرّ ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى خصّ أماكن معينة بالتقديس الخاص به؛ فالبيت الحرام وكذلك المسجد الأقصى خاصّان لله سبحانه وتعالى. ليس لبشر حقّ الادّعاء بأنهما ملكه أو خاصته، وقد اتضح ذلك في القرآن الكريم من خلال ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى في بداية سورة الإسراء حيث يقول سبحانه وتعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)

وطالما أنّ القرآن الكريم كلام الله الذي أنزل على رسولنا الكريم فإنّ ذلك يعني أنّ التقديس الإلهي للقدس يخص عقيدة التوحيد دون سواها، وبشكل أخص فإنه يخص الأمة التي أنزل القرآن لها وهي أمة الإسلام. وكل مقدس إلهي اتضح أمره في القرآن الكريم هو مقدس إسلامي، يخص كل منْ أمن بأنْ لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومن انتقص هذا التقديس فإنه ينتقص والعياذ بالله من قدسية الله وما من محب لله ورسوله إلا ويحذر أنْ يقع في هذه الحرمة الواضحة؛ فالقدس لله ولرسول الله ولأمة الله، فرض على المسلم أن يحافظ عليها ويدافع عنها ويستشهد في سبيلها.

ولما أرسل الرسول – صلى الله عليه وسلم – منحه الله سبحانه نبوة متكاملة فكان خاتم الرسل والأنبياء وإمامهم. ولحرصه – صلى الله

عليه وسلم – على توضيح مكانة بيت المقدس فقد جعل من سنته الشريفة زيارة بيت المقدس كسنة إسلامية ترتبط بالحج إلى بيت الله الحرام. وعدم زيارة الحاج إلى بيت المقدس قبل أو بعد حجه للبيت الحرام إخلال بسنن الحج بل إنّ الحج ذاته إلى بيت الله الحرام يعتبر قاصرا إذا لم يقم المسلم الحاج بزيارة بيت المقدس.

وقد سار السلف الصالح على هذا النهج فكان التقديس أي زيارة بيت المقدس سنة يطبقها المسلمون إما قبل توجههم إلى مكة أو بعد انتهائهم من تأدية فريضة الحج. وما آل إليه المسلمون من تقصير واضح تجاه المطلب الإلهي هو انتقاص من قدسية خاصة من خاصيات الله سبحانه وتعالى. ولو قرأ المسلمون ماذا يعني ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى لما توانوا عن زيارة المسجد الأقصى، ولما رضوا أن يكون حجهم قاصراً.

ولو نظروا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة بالقدس لأدركوا أنّ حجّهم غير مكتمل وأنّ عليهم واجباً كبيراً تجاه القدس يبدأ بالحفاظ عليها وتذليل كل العقبات المادية والحدود المصطنعة وينتهي بالجهاد المسلح لتحريرها من قتلة الأنبياء وأعداء دين التوحيد من يهود وصليبيين.

فهل نحن معاً في فهم النداء الإلهي الذي يناشدنا نحن أمة التوحيد أنْ نحافظ على مقدساتنا أن نرعاها ونظللها بنداء الله أكبر ونحن ندور في جنباتها ونسعى بين المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة؟ هل نحن

معاً في فهم مقاصد الحديث النبوي الشريف الذي قال إن القدس أرض الرباط وهي القبلة الأولى وثالث الحرمين الشريفين. هل ندرك أن زيارتها والجهاد من أجلها تلبية لنداء إلهي قرآني؟

المسجد الأقصى والأرض المباركة في القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم آيات عديدة، منها ما صرح بالمسجد الأقصى، ومنها ما صرح بالأرض المباركة أو المقدسة، ومن المتفق عليه أنّ المسجد الأقصى في القدس من أرض فلسطين. وقال تعالى في قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) الأنبياء الآية ٧١. وقال تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) الأنبياء الآية ٨١. والأرض المباركة هي فلسطين أي ما حول المسجد الأقصى وذلك باتفاق الآراء.

وقال تعالى في قصة سبأ: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين) سبأ ١٨. وهو ما كان بين مساكن سبأ في اليمن وبين قرى الشام من العمارة القديمة فباركنا فيها أي الشام ومنها القدس مركز البركة. وقال تعالى: (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) التين، الآية ١.

قال ابن عباس: التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين وطور سينين الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، والبلد الأمين مكة.

وقال تعالى: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) المؤمنون ٥٠ قال ابن عباس: هي بيت المقدس.

وهناك آيات أخرى فسّرها المفسرون على أنّها تدل على بلاد الشام بعامة التي منها بيت المقدس (انظر سورة الأنبياء ١٠٥، ق٤١، النور ٣٦، النحل١٧–١٨، الحديد ١٣) فمكانة القدس والأرض المباركة في القرآن الكريم لا تقل أهمية عن مكانة القدس الحرام، ولهذا السبب كان المسجدان مرتبطين بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، ولهذا السبب فهم المسلمون الأوائل مسؤولية الدفاع عنهما والجهاد لأجل الحفاظ على قدسيتها، حتى يرث الله الأرض وما عليها.

القدس بين المقياس البشري والمطلق الإلهي

ماذا نفهم من قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الإسراء الآية١. فمتى تقدّس الجغرافيا. متى تقدّس الأمكنة، فالأوطان تقدس جغرافياً لأنها رمز الوجود الوطني الاجتماعي ورمز التاريخ والحاضر والمستقبل. وفي سبيل هذه الجغرافيا تضحي الشعوب بأبنائها وأموالها لتحافظ على كل ذرة من ترابها.

لكن الأسئلة تتلاحق وتتتالى، متى تكون الأرض مقدسة؟ وهل كلّ أرض يجب أنْ تكون مقدسة؟ وما المقياس البشري للتقديس وما المقياس الإلهي في ذلك كله؟

فما العلاقة بين قدسية المسجد الأقصى وبين اختيار الله له مسرى لرسوله محمد – صلى الله عليه وسلم؟ ثم ما العلاقة بينهما وبين بقية الآيات اللاحقة في سورة الإسراء؟ وقد تتكون آلاف الأسئلة حول الجغرافيا والتاريخ. حول العقيدة والقرآن. حول الحاضر والمستقبل. وقد تعجز العقول عن التعبير وتسكت الألسنة أمام الأجوبة.

وما المقصود بالمسجد؟ ما معنى الأقصى؟ ولمن المساجد؟

لقد وردت كلمة مسجد بصيغتها المفردة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة ووردت في صيغة الجمع ست مرات. منها ما يخص المسجد الحرام، ومنها آية تربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، ومنها ما يعود على المسجد الأقصى وذلك في الآية السابعة من سورة الإسراء بقوله تعالى: (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا).

أما كلمة مساجد فقد وردت مرتبطة بستة مواقع بنسبتها إلى الله سبحانه، في سورة الحج، وسورة البقرة مرتين، وسورة التوبة مرتين، وفي سورة الجن وردت مرة واحدة. يقول تعالى: (ومساجد يذكر فيها اسم الله). سورة الحج، الآية ٤٠ ويقول تعالى: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) سورة البقرة، الآية ١١٤. ويقول تعالى: (ما كان للمشركين أنْ يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) سورة التوبة، الآية ١٧. ويقول تعالى: (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) سورة البقرة، الآية ١٨٧ ويقول تعالى: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله)

سورة التوبة الآية ١٨ ويقول تعالى: (وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) سورة الجن رقم الآية ١٨.

فالمسجد وجد للعبادة، لعبادة المسلمين واجتماعهم وانطلاق جندهم الذاهبين في سبيل الله، وليس مكاناً للعمل المهني الذي يتقاضى عليه داخله أجراً مالياً لأنّه مسجد الله. ومن يدخله متعبداً فأجره على الله. والمعني ببناء المساجد، المؤمن الذي لا يرجو على عمله أجراً من الناس. وقد أطلقت كلمة مسجد لتربط العبادة بالسجود لله وحده. والسجود كما علّمنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أدق مرحلة في صلاة المسلم يظهر فيها الخضوع لله عز وجل.

ومن ذلك أنّ المسجد الحرام هو لله وحده وكل عمل يقوم به المسلم تقرباً من الله سبحانه في هذا المسجد، هو عمل خاص بالعلاقة بين المسلم وربه.

والملفت للنظر أنّ كلمة مسجد أطلقت على البيت الحرام بعد نزول الوحي على قلب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بينما هناك آيات كثيرة يأتي فيها البيت الحرام في سياق علاقات أخرى خصّت في بعض الأحيان النبي إبراهيم عليه السلام، وأحياناً أخرى خصت بعض الأحكام وبعض المفاهيم كالأمن والأمان.

وهذا يعني أنّ المسجد الحرام كمسجد وليس كبيت ارتبط مباشرة بظهور الإسلام، وهذا يعني أيضاً أنّ هذا المكان الذي يسمى البيت

الحرام يصبح منذ بدء الوحي مسجداً يرتبط بالعبادة وخاصة الصلاة وبمعنى آخر يرتبط بدين الإسلام، وعلى الرغم من أنّ الأصنام كانت تحيط به من كل جانب وتتعبد لها قريش والقبائل العربية الجاهلية. وما أنْ يعمّ دين الإسلام وتفتح مكة حتى تتهاوى الأصنام بشكل تلقائي، وينظف المسجد الحرام من كل ما هو غريب عن دين التوحيد وكل ما هو مناقض لتعاليم الله.

فالآية التي افتتح الله بها سورة الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله....) نزلت بعد بدء الوحي بخمس سنوات، وهذا يعني أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان مازال في بدء الدعوة، وهو مستضعف لا يستطيع مجابهة مشركي قريش ولا بأية وسيلة سوى وسيلة الصبر والثبات والدعاء إلى الله.

ويدهشنا هذا الرابط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فقمة الإكرام الإلهي لنبيه تأتي بإسرائه إلى المسجد الأقصى، وهنا تكمن قدسية المسجد الأقصى وبيت المقدس. إنها قدسية تبلغ الذروة. فسيد الأنبياء وخاتمهم يسرى به إلى المسجد الأقصى، لأن الأقصى مثل الكعبة خاص لله وحده. فلو افترضنا أنّ المسجد الحرام معروف جغرافياً باسم البيت الحرام، فإنّ ذلك لا ينطبق على المسجد الأقصى، وذلك في العقلية العربية التي كانت سائدة آنذاك، وإذا كان مشركو قريش لا يقرّون بأن البيت الحرام سيكون هو نفسه المسجد الحرام الذي يسجد فيه لله وحده فكيف يقرون بالمسجد الأقصى الذي لا تربطهم به روابط عقيدية معينة.

الواقع يقول لنا الكثير حول ذلك، وهو بيتٌ للرب، أو رمز لديانة

إبراهيم التوحيدية عليه السلام، والتي انحرف عنها الأعراب، يعتبر رمزاً لارتباط الأعراب أنفسهم بمركز معنوي وتجاري لسيادة قريش سياسياً وتجارياً. وبمعنى من المعاني فالبيت الحرام محور الجزيرة العربية، والمركز المهم الذي يرتبط العرب به. وطالما أنه أصبح يعج بالأصنام التي تمثل كافة القبائل العربية فإنه في نظر العرب آنذاك أهم مركز تجاري يمثل العرب في مواجهة ومنافسة الحضارات الدينية المحيطة بالجزيرة العربية كالأحباش في الجنوب والفرس في الشرق والشمال والروم في الغرب والشمال. وقد كان ارتباط البيت الحرام بشخصية النبي إبراهيم –عليه السلام– وكذلك بشخصية ابنه إسماعيل – عليه السلام – له الأثر البالغ في نظر العرب، خاصة أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم أبي الأنبياء جميعاً.

ومن هنا فإنّ إطلاق تسمية مسجد على البيت الحرام في القرآن الكريم تعني بالحتمية أنّ هذا المكان سيعود إلى ما كان عليه زمن إبراهيم عليه السلام مركزاً دينياً توحيديًا يشع على العالم بنور الهداية وجمع كلمة الموحدين، على الرغم من كلّ أشكال الإفساد والوثنية التي طرأت عليه، أو على محيطه.

إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، فالمسجد الحرام يعمره مادياً وروحياً ومعنوياً الموحدون المؤمنون بالله واليوم الآخر، وهذا لا ينطبق على قريش وعلى المشركين الذين وجدوا قبل الإسلام، إنما ينطبق على عباد مسلمين لهم صفات تحدث عنها القرآن في أكثر من آية وفي أكثر من موقع في القرآن الكريم.

إنّ كل ذلك لا يصعب على الفهم في ذلك السياق التاريخي، أو

الوضع الآني الذي كان عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكن الذي يصعب على الفهم هو ورود تسمية المسجد الأقصى في تلك الآية التي ربطت المسجد الحرام بالمسجد الأقصى فهل كان العرب يعرفون ما يسمى المسجد الأقصى؟ قد يعرف بعض رجالهم وتجارهم أن في أرض فلسطين معبداً أو معابد أقامها أهل البلاد، ولكن لا أحد يعرف أن هناك مسجداً يدعى المسجد الأقصى فذكر المسجد الأقصى في سورة الإسراء، وفي الظرف الزمني الذي كان فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يعلله إلا الله سبحانه وتعالى وربط معاني القرآن الكريم وأسباب نزوله ودراسة سياق نصه مجتمعاً وليس مقتطعاً إضافة لارتباط هذا المسجد بالعامل البشري والعقيدي.

فالمسجد الأقصى حين نزول سورة الإسراء على الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو جغرافياً جزء من أرض مباركة تسمى فلسطين وما جاورها ظلّت من قبل الرومان منذ ٧٠ ق.م وحتى ظهور الإسلام، وقبل هذا التاريخ كان فيها بعض اليهود وفي مرحلة من المراحل بلغ وجودهم فيها إقامة دويلة حكموا فيها من قبل النبي داود وابنه سليمان عليهما السلام.

وفي الجانب العقيدي ارتبط بهذا المكان المقدس عدد من الأنبياء، وباعتبار أنّ مباركة هذه الأرض خاصة بالله، فإنّ حكمته اقتضت أنْ يكون للأرض المباركة شأن فريد من نوعه لدى الأنبياء منذ إبراهيم – عليه السلام – وأكثر من ارتبط عقيدياً بها النبي إبراهيم أولاً ثم داود

وسليمان وعيسى وزكريا ويحيى عليهم السلام. فهي إذاً موطن إشعاع توحيدي نبوي. فكما كان المسجد الحرام زمن إبراهيم وإسماعيل موطن إشعاع توحيدي، كذلك كانت الأرض المباركة وفيها المسجد الأقصى.

إن هذا كله يجعلنا نتوقف متأملين في سورة الإسراء التي أشارت صراحة إلى المسجد الأقصى والأرض المباركة حوله، فلم يخصْ القرآن الكريم سوى مكانين مقدسين تقديساً إلهياً المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهما في ذلك رمزان وحيدان للتقديس الإلهي. وما يخص الله سبحانه من المحتم أن يكون توحيدياً نظيفاً من أية علامة للشرك والوثنية، واقتضت الحكمة الإلهية أن ينظف المسجد الحرام من كل مظاهر تلك الوثنية ويبقى كذلك إلى وقتنا الحاضر. أما المسجد الأقصى فقد دخله المسلمون أول مرة زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وأزيلت كل معالم الشرك والوثنية منه إلى حين. حيث إنّ مظاهر الفساد عادت مرة أخرى إلى الأرض المباركة على أيدي المتهوّدين الذين هم أشد عداوة من كل الأطراف لدين التوحيد والإسلام.

إنّ اليهود يدّعون أنّ المسجد الأقصى أقيم فوق هيكل خاص بهم، ويدّعون أن مدينة القدس هي عاصمة ملكهم الغابر، ويدّعون أن هذا الهيكل بناه النبي سليمان عليه السلام. وإذا عدنا إلى واقعة الإسراء نرى أنّ الله سبحانه وتعالى اختار الأرض المباركة دون سواها كي يسري برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليها لأنها أرض مباركة منذ ما قبل إبراهيم عليه السلام. وكان لإسرائه إليها معنى كبير من معاني اكتمال

النبوة؛ فهذه الأرض شهدت نبوات توحيدية. وحتى ينصف دين التوحيد بشكله العام فقد أسري برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المسجد الأقصى، وإسراؤه يعني أنّ الإسلام بوجهه القرآني جاء لينسخ ما قبله ويضمه في بوتقته.

فالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بُعث للناس كافة وعلى جميع الشعوب أنْ تنتمي لهذا الدين الشمولي؛ فهو دين الأنبياء جميعاً والنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – أولى بإخوته من الأنبياء من سائر البشر حتى أقوامهم وأهلهم؛ ولذلك كان اختيار بيت المقدس للإسراء اختياراً ربانياً خاصاً ليؤكّد على وحدة الدين التي حاول اليهود والمشركون تدميرها، ولكن حكمة الله اقتضت أنْ يرد هؤلاء رداً عنيفاً بمبعث محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم.

وقد اتفق العلماء أنّ من حكمة الإسراء تثبيت الديانة التوحيدية السماوية في القدس الشريف أو إيحاء بأنّ القدس ستبقى معقل التوحيد وإنْ حل فيه الفرس عبدة النار، وفيها إنذار وتحذير لليهود الذين غدروا بأتباع المسيح وكفروا بالإنجيل، ولعل في أهل القدس الذين قتلهم اليهود قسيسين ورهباناً مؤمنين موحدين ينتظرون بعثة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ليؤمنوا به كما أخبرهم عليه السلام في الإنجيل الصحيح. أقول هذا لأنّ الله تعالى ذكر قصة الإسراء في آية واحدة في سورة الإسراء – ثم أخذ بذكر فضائح اليهود وجرائمهم ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم – فربما ظن القارئ أنّ الآيتين ليس بينهما

رابط، والأمر ليس كذلك فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أنّ الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ليشير إلى أنّ اليهود الذين تسلطوا على بيت المقدس عند تعاونهم مع الفرس المجوس سوف يجلون عن القدس لأنه مكان مقدس ينزه عن أمثالهم لما ارتكبوا من الجرائم فيه

بيت المقدس في السنة النبوية الشريفة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسل

اشتملت السنة النبوية الشريفة وسيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على كثير من الأحاديث الخاصة بالقدس والمسجد الأقصى. فتحدث بعضها عن قدم المسجد الأقصى وأصل بنائه، وبعضها عن فضائل بيت المقدس ومكانته، وبعضها الثالث تحدث عن نهاية أمره وصراع المسلمين مع اليهود لأجله.

وإضافة لما ذكر من أحاديث نبوية شريفة فإن في سيرته الكثير من القضايا المرتبطة ببيت المقدس كرسالته إلى قيصر الروم هرقل، وكالحديث عن السرايا المجاهدة التي أرادها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن تتجه صوب الأرض المباركة فلسطين والمسجد الأقصى.

١– وعن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه قالت أرأيت من لم يطقْ أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه (رواه أحمد ٦/٤٦٣ وابن ماجه ١/٤٢٩).

٢- في فضل العبادة والصلاة ببيت المقدس: روى الإمام أحمد عن معقل بن أبي معقل الأسدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن نستقبل القبلتين ببول أو غائط ٤/٢١٠. والقبلتان هما الكعبة والمسجد الأقصى.

٣- عن عبد الله بن الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو مخاصر فتى من قريش يشرب الخمر؛ فقلت: بلغني عنك حديث. أنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. ثم قال عبد الله بن عمرو إني لا أحل لأحد أن يقول عليّ ما لم أقل. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ..... الحديث المسند ٢/١٧٦.

٤- وجاء في الحديث: من أهلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله ما تقدم من ذنبه (أو وجبت له الجنة) رواه أبو داود في سننه. وفي سنن ابن ماجه (من أهلّ بعمرة من بيت المقدس كانت كفارة لما قبلها من الذنوب) وقد أحرم منه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - وابنه عبد الله كما روي ذلك في الأنس الجليل الصفحة ١٤٦.

٥- عن جابر أنّ رجلاً قال يا رسول الله أيّ الخلق أول دخولاً إلى الجنة؟ قال الأنبياء قال ثم من؟ قال الشهداء قال ثم من قال مؤذنو المسجد الحرام. قال ثم من قال مؤذنو بيت المقدس قال ثم من قال مؤذنو مسجدي هذا قال ثم من قال سائر المؤذنين على قدر أعمالهم.

(الشفا في التعريف بحقوق المصطفي ص ١٤٨).

٦- وروى البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء رفعه (الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة) قال البزار إسناده حسن (الفتح ٦٧/٣).

٧- قال صلى الله عليه وسلم: لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسجد الأقصى. وفي رواية أخرى: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي.. والحديث الأول رواه البخاري عن الوهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة - باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة. والثاني باب مسجد بيت المقدس من كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.. حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن عبد الملك بن عمير عن قزعة بن يحيى مولى زياد ابن أبي سفيان قال سمعت أبا سعيد الخدري... (الحديث) فهاتان الروايتان من أهمّ الروايات وأدقها وهما تكفيان صحة الحديث. والحديث يدلّ على مكانة المسجد الأقصى في نفوس المسلمين، بل مكانة المسجد الأقصى في الشرع الإسلامي، وبالتالي يدلّ على منزلة المكان الذي بُنِي فيه المسجد الأقصى ومكانة ما حوله من الأصقاع لأنّ الله سبحانه وتعالى بارك فيها بنص القرآن الكريم فهو ثالث ثلاثة مساجد يضاعف فيها ثواب المسلم

والقدس التي تضم المسجد الأقصى ثالثة ثلاث مدن هن أركان أمة

الإسلام وقد جاء في مسند ابن حنبل ٣٩٦/٦ عن أبي بصرة قال: لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه قال: فقلت له: لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت. قال: ولم؟ قال فقلت الحديث... أي أنّه لا تشد الرحال إلا إلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة، وأبو هريرة كان قد شد رحاله إلى غير هذه المساجد الثلاثة.

وقد حاول بعض المستشرقين – ومنهم يهود – التشكيك في صحة الحديث (لا تشد الرحال) وهدف اليهود من الطعن في هذا الحديث أنْ لا تكون للمسجد الأقصى مكانة في نفوس المسلمين.

ولعلّ في حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الإسراء من الإرشاد ما يكفينا من قول حول مكانة المسجد الأقصى؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: أتيت بالبراق — وهو دابة بيضاء طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه – قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء — أي عند باب المسجد – ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة. الحديث في صحيح البخاري — من كتاب الإيمان — باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض الصلوات برقم ١٦٢.

وفي الأحاديث الصحيحة في الإسراء ما رواه الإمام أحمد في المسند ٣٨٧/٥ و ٣٠٩/١ ففي حديث الإسراء معانٍ كثيرة تلفت النظر

أولهما: أنّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – أُسرِي به إلى مكان مقدس قدّسه الله قبل خلق البشر.

ثانيهما: أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤم الأنبياء بإرادته بل إنّه انتظر مثل بقية الناس ليأتي من يؤم بالصلاة، وهذا دليل تواضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من ناحية ودليل انتظاره لأوامر الله سبحانه وتعالى عن طريق جبريل.

وقد أخذه جبريل وقدّمه ليصلّي إماماً بالناس، وهو لم يعرفْ بمن يؤم؛ فقال له جبريل إنهم الأنبياء الذين بعثهم الله.. وفي هذا دلالة على مسألة مهمة، وهي أنّ بيت المقدس الذي صلى فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إماماً للأنبياء هو مكان رباني يريد الله أنْ تتم فيه النبوات وتختتم بمحمد صلى الله عليه وسلم. وهذا هو التحدي الرباني لكل من بعث الله لهم بأنبياء وجحدوهم وقتلوا بعضهم وانحرفوا عن عقيدتهم. فبصلاة محمد – صلى الله عليه وسلم – إماماً بالأنبياء يعني أن ديانة التوحيد سيقودها هذا النبي وأن المسجد الأقصى الذي هو مقدس رباني أولى بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وبمن آمن معه من المسلمين الموحدين الذين أناط الله بهم مسؤولية حماية بيته المقدس.

المسجد الأقصى القبلة الأولى:

روى البخاري عن البراء بن عازب أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو أخواله من الأنصار وأنّه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون

قبلته قِبَلَ البيت الحرام. وأنه صلى عند وصوله المدينة أول صلاة فيها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممّن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قِبَلَ مكة فداروا كما هم قِبَلَ البيت وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل البيت المقدس، ولما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

ومن طريق أخرى عن البراء بن عازب كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله يحب أنْ يوجّه إلى الكعبة فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون). البقرة الآية ١٤٤ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس – "ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم". وهذا الحديث وكذلك آيات القرآن الكريم تفيد كثيراً في معرفة جواز الصلاة وثوابها نحو بيت المقدس. فالله تعالى يقول: "ما كان الله ليضيع إيمانكم" أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس:

عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: إنّ مكة بلد عظيم عظّمه الله وعظّم حرمته وحفّها بالملائكة قبل أنْ يخلق شيئاً من الأرض يومئذٍ كلها بألف عام ووصلها بالمدينة ووصل المدينة ببيت المقدس ثم خلق الأرض بعد ألف عام خلقاً واحداً.

وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال لصعصعة: نعم المسكن بيت المقدس، القائم فيه كالمجاهد في سبيل الله، وليأتِيَنّ على الناس زمن يقول أحدهم ليتني لبنة من لبنات بيت المقدس.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٩/٥ (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا ما أصابهم من البلاء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك قالوا يا رسول الله وأين هم قال في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس).

حكمة إلهية في رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم:

تذكر المصادر الإسلامية أنّ كسرى أغزى جيشه بلاد هرقل فخربوا كثيراً من بلاده أي بلاد الشام ثم استبطأ كسرى أميره فأراد قتله وتولية غيره فاطلع أميره على ذلك فباطن هرقل واصطلح معه على كسرى وانهزَم عنه بجنود الفرس فمشى هرقل إلى بيت المقدس شكراً لله تعالى على ذلك. وهذه القصة تشير إلى آخر غزو فارسي على بلاد الشام والقدس واحتفال النصارى بذلك.

وروى البخاري في كتاب بدء الوحي (باب ٦) أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتب إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام بعد العودة من الحديبية. ويرى المؤرخون أنّ الكتاب أرسل في المحرم من بداية السنة السابعة للهجرة. وكان هرقل في بيت المقدس. وقد جاء في كتاب

رسول الله – صلى الله عليه وسلم: باسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.. السلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإنْ توليت فإن إثم الأكارين عليك (وفي رواية الفريسيين).

وإذا عدنا إلى قوله تعالى في سورة الروم: (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) (الروم ٢–٥).

نرى أنّ القرآن الكريم يخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنّ الروم سيعيدون الكرة على الفرس وسيغلبونهم بعد بضع سنين من انكسارهم أمام الفرس، وقد تمّت غلبة الروم على الفرس، وبعدها جاء هرقل من حمص إلى بيت المقدس، وكانت غلبة الروم ليست بقوتهم إنّما هي إرادة الله كي يفرح المؤمنون بنصر الله. وجاء كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هرقل وهو ببيت المقدس. والواقع أنّ الروم رفضوا أنْ يسلموا أو يدفعوا جزية أو ما شابه ذلك، وكان ذلك يعني بدء الحرب بين المسلمين والرومان، والواقع أنّ وجود هرقل في القدس أثناء ورود كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليه فيه دلالة وإرهاص بأنّ هذا البيت بيت المقدس سيؤول إلى المسلمين الموحدين.

وقد جاء في الروايات والحديث الصحيح الذي رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ج٥ قال هرقل قل لأبي سفيان فإنْ كان ما تقول

فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنّه خارج لم أكن أظن أنه منكم. وحسب الروايات أنّ المقصود بموضع قدمي هرقل بيت المقدس وفلسطين. وحسب بعض الروايات أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لواحدٍ من صحابته أعدد ستاً بعد وفاتي وتحرر القدس. والواقع أنّ القدس حررت في السنة السادسة للهجرة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وامتلك المسلمون موضع قدمي هرقل ملك الروم.

ولعلّ أهمّ ما جاء في أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلك الأحاديث التي تتحدث عن القدس كأرض للرباط والجهاد، وكأرض ستشهد الملحمة الكبرى بين المسلمين واليهود؛ فقد روي في صحيح البخاري الجزء ٣ كتاب الجهاد والسير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود). وقال عمر – رضي الله عنه – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله.

ومما تقدّم من أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ندرك أنّ للقدس – وتحديداً للمسجد الأقصى – مكانة في عقيدة الإسلام، وهذه المكانة لا تقلّ أهمية عن مكانة المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وهي المكان الذي

اختاره الله سبحانه وتعالى ليكون مسرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسجد الذي يؤم فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأنبياء. وهو كذلك أرض المحشر والمنشر وأرض الملحمة العقيدية الكبرى التي ينتصر فيها المسلمون على اليهود.

إنّ كل هذه الأمور ارتبطت مع بعضها لتشكّل لدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رؤية واضحة للتعجيل بتحرير بيت المقدس من الروم الذين رفضوا دعوته للدخول في دين الله. ولتقطع الطريق على قتلة الأنبياء حتى لا يفكّر واحد بالتسلط على هذه البقعة المباركة.

أرض فلسطين محط أنظار المسلمين زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم

نستطيع القول إنّ التوجّه نحو تحرير بيت المقدس زمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدأ حينما بعث بكتابه إلى هرقل ملك الروم وهو في بيت المقدس، وكان آنذاك يحتفل بالنصر على الفرس عام ٦٢٨م الذي يوافق تماماً أواخر السنة السادسة أو أوائل السنة السابعة للهجرة لأن الهجرة النبوية كانت في ٢٣ من الشهر التاسع عام ٦٢٢م واحتفال هرقل كان في ٩/١٤ سنة ٦٢٨م الذي يوافق تماماً أواخر السنة السادسة أو أوائل السنة السابعة للهجرة. وقد ذكر البخاري في كتاب بدء الوحي باب ٦ أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتب إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام بعد العودة من الحديبية، وقد بدأت الأنظار تتجه نحو تحرير الأقصى وفلسطين منذ حادثة الإسراء وتعرف المسلمين

على منزلة بيت المقدس في عقيدتهم وبعد أنْ أدركوا معنى الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

ومنذ السنة الخامسة للهجرة بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – ببعث السرايا على الطريق بين المدينة والشام. في السنة الخامسة كانت غزوة دومة الجندل وهي مكان على بعد ٤٥٠ كيلومتراً شمال تيماء، وفي السنة السادسة بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعثمان بن عفان – رضي الله عنه – على رأس سرية مرة أخرى إلى دومة الجندل، وفي السنة السابعة كانت غزوة خيبر لأنّ يهودها كانوا يهدّدون الطريق إلى الشام، وفي السنة الثامنة كانت سرية كعب الغفاري إلى ذات أطلاح من ناحية الشام وهو في منطقة وادي عربة، وفي السنة الثامنة نفسها كانت غزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص، وفي السنة نفسها كانت سرية زيد بن حارثة إلى حدود فلسطين، ثم جاءت غزوة مؤتة وتبوك وفي السنة الحادية عشرة كانت سرية أسامة بن زيد وقد أمره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنْ يصل إلى دير البلح في جنوب فلسطين، لكن الغزوة توقّفت فترة بسبب وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفيما قبل ضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعثاً إلى الشام وأَمّرَ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة وأمره أنْ يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهّز الناس وأوفد مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون.

أمّا ما كان من غزوة مؤتة فإنّ الرسول – عليه الصلاة والسلام –

بعث إلى الشام جيشاً قوامه ثلاثة آلاف وذلك في سنة ثمان للهجرة وعلى رأسه زيد بن حارثة، وقد وصى الرسول صلى الله عليه وسلم إنْ قتل زيد فجعفر بن أبي طالب يتسلّم قيادة الجيش فإنْ قتل يتسلم مكانه عبد الله بن رواحة. وقد واجه الثلاثة آلاف، جيشاً للروم قوامه مائة ألف فاحتار المسلمون في أمرهم ودارت معركة غير متكافئة فاستشهد القادة الثلاثة حتى تسلم الراية خالد بن الوليد فانحاز عن الحرب وقفل راجعاً إلى المدينة بعد أنْ كاد يفنى جيش المسلمين. وقد حدثت معركة مؤتة قبل فتح مكة لتؤكد للمشركين قوة روح الإسلام ولتؤكد أيضاً أنّ أرض الشام وبيت المقدس لها من الأهمية ما يدفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لبعث الجيوش إليها ومقارعة الروم كمقدمة لتحريرها.

القدس ووعد الله بالنصر وتحريرها من اليهود

لقد توقّفنا عند محطات مهمة بشأن القدس والأرض المباركة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، واستكمالاً لما جاء فإنّنا نتوقّف هنا عند الآيات القرآنية الكريمة التي لحقت فاتحة سورة الإسراء. لقد شكّلت القدس كما رأينا في القرآن والسنة مسألة أساسية في حياة العقيدة الإسلامية. ولما كانت كذلك فإنّ الحثّ على تحريرها أمرٌ رباني مفروغ منه لأنها كما قلنا القبلة الأولى وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولها ما للمسجد الحرام ومكة من شأن وأهمية في حياة المسلمين.

ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم في سورة الإسراء ونظرنا بدقة في

قول الله تعالى لوجدنا أنّ الآيات الأولى من هذه السورة تشير إلى مسألة مهمة خطرة.

يقول تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الإسراء من الآية ١.

ويقول تعالى: (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً) (الإسراء ٧).

لقد عرفنا أنّ المسجد المقصود في الآية الأولى هو المسجد الأقصى، فما المقصود بالمسجد في الآية السابعة؟ وما العلاقة بين مجمل الآيات الأولى من سورة الإسراء؟

يقول تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير. وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا. وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً. عسى ربكم أنْ يرحمكم وإنْ عدتم

عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) (الإسراء ١-٩).

ويقول تعالى في الآية ١٠٤ من سورة الإسراء نفسها: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) فقد أجمع المفسّرون أنّ سورة الإسراء مكية نزلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو في مكة. وأكثر التواريخ اتفاقاً ما قاله البيهقي عن ابن شهاب – رضي الله عنه – قال أُسرِي برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بستة عشر شهراً وبعضهم قال قبل الهجرة بسنة. على أية حال فالمتفق عليه أنّ سورة الإسراء مكية، وعلى هذا فهناك أسئلة كثيرة حولها وحول تاريخ نزولها والمعنى من ذلك.

١– عندما نزلت هذه الآية وصفت البيت الحرام بالمسجد الحرام ووصفت بيت المقدس بالمسجد الأقصى. وقد كان المسجد الحرام يعجّ بمئات الأصنام وعلى رأسها هبل واللات والعزى ومناة وأساف ونائلة. ويُقال إنّ البيت الحرام كان حوله أكثر من ٣٦٠ صنم على عدد قبائل العرب. وكان الأقصى محتلاً من قِبَل الروم وفي القدس معبد مهمَل بينما كانت كنيسة القيامة هي المكان المقدّس بالنسبة للرومان المنتصرين آنذاك. فطالما أنّ البيت الحرام كان يعجّ بالأصنام فكيف يصفه القرآن الكريم بالمسجد الحرام ثم كيف يوصف بيت المقدس بالمسجد الأقصى

وهو مهمل لا أحد يدري بقدسيته؟ والواقع أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تعرّض لأذى قريش فالتجأ إلى الطائف ولكن أهل الطائف لاحقوه فأدموا قدميه فالتجأ إلى الله بالدعاء أنْ يفرّج كربه، وبعد عودته من الطائف إلى مكة حدث الإسراء ونزلت سورة الإسراء أيضاً.

٢– عندما نزلت سورة الإسراء على قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان ضعيفاً وحوله المسلمون ضعفاء لا يستطيعون المقاومة أمام طغيان قريش فكانوا عبيداً وفقراء ومستضعفين وقليلي الحيلة والبيت الحرام يعبث فيه أبناء قريش فساداً.

٣– سميت هذه السورة بتسمية أخرى هي سورة بني إسرائيل.

٤– على الرغم من اسمها المعروف سورة الإسراء فإنّها لم تتحدّث عن الإسراء إلا في آيتها الأولى والآيات التي تليها كانت عن بني إسرائيل وموسى عليه السلام. إذاً فما العلاقة بين الآية الأولى وبقية الآيات. لو عدنا إلى الأحداث التي مرت بها سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لوجدنا أنّ المسلمين انتصروا على قريش وعادت مكة للمسلمين ثم أخلي البيت الحرام من الأصنام بعد أنْ كسرت وحطمت وطهر البيت الحرام من كل مظاهر الوثنية والخمور والنجاسات ورفع بلال صوته ليؤذن بالناس ليصلوا في هذا المسجد العظيم.

فوصف القرآن الكريم للبيت الحرام بالمسجد الحرام في سورة الإسراء جاء إرهاصاً ربانياً للمستقبل بأنّ البيت الحرام سيحرّر من

الأصنام ويعود مسجداً للموحّدين من جديد كما كان زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام. وقد قلنا ذلك سابقاً.

وإذا نظرنا أيضاً إلى وصف القرآن الكريم لبيت المقدس بالمسجد الأقصى لرأينا أنّه إرهاص للمستقبل بأنّ هذا المكان المقدس سيحرّره المسلمون. وفعلاً تمّ تحرير بيت المقدس على أيدي المسلمين بعد وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بست سنوات أي في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.

وقد اختلف المفسّرون المسلمون في تفسير هذه الآيات اختلافاً بيّناً، فمنهم من قال إنّ الله سلط على بني إسرائيل جالوت وجنوده، ومنهم من قال إنّ نبوخذ نصر أو العمالقة أو سنحاريب أو أهل فارس والروم ومن قائل العرب.

كما رجح عند كثير من المفسرين أنّ اليهود أفسدوا بقتلهم أنبياءهم وأنّ نبوخذ نصر البابلي هو الذي قضى على علوهم وإفسادهم الأول. ثم أفسدوا ثانية بقتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام وأن الرومان هم الذين قضوا على علوهم وإفسادهم الثاني.

ولو دقّقنا في الآيات الكريمة التسع من سورة الإسراء لوجدنا ضعف ما جاء به المفسرون المسلمون، لا سيما إذا عدنا إلى دراسة طبيعة الصراع بين المسلمين واليهود على مر التاريخ. فالروايات التي رواها المفسرون لم تستندْ إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

والواقع أن للمفسّرين عذرهم لأنّهم لم يتنبأوا بما ستؤول إليه الأمور من ضعفٍ للدولة الإسلامية وقيام كيان اليهود في فلسطين. فالمفسّرون لم يكونوا أمام واقعنا الحاضر من علوّ اليهود وإفسادهم في الأرض واستيلائهم من جديد على بيت المقدس ففسّروا الآيات بأن أحداثها قد وقعت.

وقد أشرنا إلى أنّ مكة لم تكنْ للمسلمين وأنّ الكعبة لم تكنْ مسجداً، وإنما كانت بيتاً تقوم حوله الأصنام ويطوف به المشركون. ولم يكنْ هناك معبد داود وسليمان في دولة يهودا مسجداً بالمعنى الإسلامي. إنّما كان المعبد معبداً يأكل بنو إسرائيل من حوله السحت ويعيثون فساداً بل يضعون فيه الأصنام ويبيعون فيه الحمام ويجتمع به اللصوص كما قال السيد المسيح في الإنجيل.

ولكن الله – عز وجل – تحدّث عن هذا الإسراء بأنّه انتقالٌ من مسجدٍ إلى مسجد تبشيراً للمسلمين بأنّ أمرهم سيعلو بحيث يصبح البلد الذي استضعفوا فيه وهانوا وحلت حرماتهم فيه مسجداً ودار أمن وسلام.

وحسب الرأي في تفسير آية "فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا" لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذي قاموا به على عهد النبي وأصحابه وعاقبهم الله وسلّط عليهم فيه. ثم يقول هذه المرة هي المرة الأولى ولا تنطبق أوصافهم إلا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك للأسباب التالية:

١– فهم أي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا) لأنهم الموحّدون أتباع عبده الذي ورد في

أو السورة وهو الرسول الذي أسري به. أما أتباع نبوخذ نصر وسابور وسنحاريب فاضطربت فيهم الأقوال فقد كانوا عبّاد وثن ولا يستحقون شرف الاختصاص بالله في قوله عز وجل – لنا –

٢- وهم الذين وصفهم الله في كتابه أشداء على الكفار رحماء بينهم.

٣- وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار.

أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنّه قتل منهم سبعين ألفاً وأنّه دخل بيت المقدس في أهله وسلب حليه. فهو اجتياح وليس جوساً. ويستمرّ رأي الأزهر على المنوال نفسه ليؤكد عنوان المقالة سورة الإسراء تقضي نهاية إسرائيل.

بعد ذلك نود أنْ نقول:

١- يعلو بنو إسرائيل في الأرض مرتين مصحوبتين بإفساد. ومن المؤكد أنّ العلو الذي عاشوه في ظلّ بعض رسلهم لم يصحبه إفساد.

٢- ينتج عن هذا العلو والإفساد صراع ودمار وخراب في الوقت الذي يضع فيه القرآن بني إسرائيل طرفاً واضحاً وأكيداً في المرتين. فإنّه يؤكد أيضاً على وجود طرف آخر يتكرر نفسه في المرتين تماماً كما يتكرر بنو إسرائيل كطرف. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الطرف باسمه مرة واحدة في أول الآيات عباداً لنا، ثم استمرت الإشارة إليه بضمير الغائب إلى آخر السياق تأكيداً على أنّه الطرف نفسه الذي يواجه بني إسرائيل

في المرة الأولى فبعد قوله تعالى: (بعثنا عليكم عباداً لنا) تأتي الأفعال فجاسوا – رددنا – جعلنا. ثم تأتي الأفعال المضارعة في قوله يسوؤا – يدخلوا – يتبّروا. فالضمير محلّ فاعل أو مفعول يعود في جميع الأفعال الثلاثة الأخيرة يسوؤا – يدخلوا – يتبّروا عائد كما هو واضح على – عباد لنا – مما يؤكد أنها في الحالتين معركة بين طرفين فقط. الطرفين نفسهما– المسلمين واليهود.

٣– تشير التفسيرات الأخرى إلى مواجهة بني إسرائيل لأكثر من قومٍ فمرة نبوخذ نصر ومرة سنحاريب، ومرة الروم، ومرة الفرس، وحتى العرب، وهذا يغاير ما اقتضته الآيات من أنّ المواجهة بين طرفين يتكرّران في المرتين بمعنى إذا كان صراع المرة الأولى مع الفرس أو الروم فصراع المرة الثانية يجب أن يكون معهم.

٤– لم يعدْ الله سبحانه لليهود الكرّة لا على بختنصر ولا سنحاريب ولا الروم ولا الفرس ولم يجعلهم الله أكثر نفيراً من هؤلاء، فالآيات تشير إلى أنّ اليهود يصبحون أكثر نفيراً وما كان اليهود أكثر نفيراً من الروم والبابليين. أمّا الآن فقد استطاعوا أنْ يستنفروا كل أمم الأرض ولم يكنْ اليهود في يومٍ ما أكثر نفيراً وناصراً منهم اليوم ولم يتمتعْ اليهود في تاريخهم بمثل ما يتمتعون به اليوم.

٥– لقد ردّ الله الكرة لبني إسرائيل على المسلمين والعرب كما هو واضح منذ سقوط القدس وقيام كيانهم واستمرار علوهم وإفسادهم.

٦- إن فعل الانبعاث الوارد في مطلع الآيات يحمل من الدلالات والمعاني ما ينبغي الوقوف عنده، فالفعل هنا يحمل إيحاء الرضا، والرضا لا يكون من الله على الوثنيين والمشركين وإنّما يكون على المؤمنين وقد جاءت كلمة بعثنا في القرآن الكريم سبع مرات كان الفاعل فيها جميعاً هو الله وكان المفعول به أي المبعوثين هم الأنبياء والمؤمنون الصالحون.

وتؤكد الرؤية الإسلامية موقفها هذا من تفسير سورة الإسراء على ضوء بعض الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد انتصار المسلمين على اليهود، وكذلك بعض أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وقد مر معنا بعضها.

يقول تعالى: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) الإسراء ١٠٤ ويقول تعالى: (وإذْ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب. وإنه لغفور رحيم) الأعراف الآية ١٦٧. وقوله تعالى: (وقطّعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) سورة الأعراف ١٦٨.

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود. صحيح البخاري ج٣ من كتاب الجهاد والسير.

وعندما نعود إلى قوله تعالى: (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم

وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً) (الإسراء ٧) نرى أنّ هذا وعدٌ من الله للمؤمنين عباده بالنصر على اليهود وتحرير المسجد الأقصى تحريراً مؤزراً ينتهي بتدمير ما علا من بني إسرائيل تدميراً مطلقاً كاملاً.

لقد دخل الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بيت المقدس صلحاً وقد جاس المسلمون ديار بيت المقدس دون أنْ يقتل شخصٌ أو يدمّر شيء. وذهب إلى الصخرة التي عرج منها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنظّفها ومعه القادة المسلمون ثم أمر ببناء مسجد قبة الصخرة، إضافة لاهتمامه البالغ بمكان المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالأنبياء.

لقد فرح المسلمون حين فتح عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بيت المقدس وكان فرحهم يضاهي فرحهم بفتح مكة لأنّ ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى قضية قرآنية تعلو فوق كل ما هو وضعي. إنها آية من آيات القرآن الكريم التي تمتلئ بالأسرار الإلهية والإرادة الربانية.

من خلال ما تقدّم ندرك أنّ القرآن الكريم وأحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسيرته تقول لنا جميعها إنّ القدس ستحرّر وأنّ المسجد الأقصى سيبقى مسجداً توحيدياً إسلامياً وأن المسلمين لا بد أنْ ينهضوا ليؤدّوا شعائر الحج كاملة بزيارتهم بيت المقدس ومن ثم يحرروه من رجس اليهود المفسدين.

مصر في القرآن.. دلائل إعجاز

ذكر الله تعالى مصر في أربعة مواضع في كتابه الكريم، وفي ذلك تشريف لها وتكريم، فقال جَلّ من قائل: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته﴾. وقال سبحانه: ﴿ادخُلوا مِصرَ إِن شاءَ اللَّهُ ءامِنينَ﴾. وقال: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة﴾. وقال: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾.

وذكرها سبحانه إشارة في مواضع عديدة تبلغ قرابة الثلاثين، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾، وقوله تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفله من أهلها﴾ وكقوله تعالى قاصاً قول آل فرعون: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾. وكقوله تعالى قاصاً قول ناصح موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك﴾ إلى آخر تلك المواضع الكثيرة.

وقد وصف سبحانه وتعالى أرض مصر أحسن وصف فقال جل من قائل: ﴿كم تركوا من جنات وعيون {٢٥} وزروع ومقام كريم {٢٦} ونعمة كانوا فيها فكهين {٢٥} كذلك وأورثنها قوماً آخرين {٢٨}﴾ .

وقد وُصفت مصر في القرآن بأنها خزائن الأرض؛ فقال سبحانه قاصاً قولَ يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿قال اجعلني على خزائن

الأرض) وما ذلك إلا لكثرة خيراتها، وعظم غلاتها، وجودة أرضها.

ولم يذكر نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل، وذلك في قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) والمفسرون على أن المقصود باليم هنا هو نيل مصر.

وقال الكندي: لا يُعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله تعالى عليه في القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر، كان فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، وإبنه إسماعيل، وإدريس، ويعقوب (عليهم السلام)، وعاش ومات فيها يوسف – عليه السلام – وولد فيها كليم اللّه موسى وأخوه هارون – عليهما السلام – ومنها تزوّج إبراهيم الخليل هاجر، فأنجب منها إسماعيل – عليهما السلام – ومنها تزوّج سيد ولد آدم مُحمَّد – عليه الصلاة والسلام – ماريّا فأنجب منها ابنه إبراهيم!

إنها مصر.. رمّانة الميزان.. أم الدنيا.. أرض الكنانة.. بلد الأنبياء والصالحين.. خصّها القرآن بذكر اسمها صريحًا دون سائر الدول.. كما خصّها بمنظومة قرآنية.. في غاية الدقة والإتقان. منظومة خماسية يشرق نورها من الوهلة الأولى.. وعلى مستوى حركة الحرف! فتأمّلوا..

ذُكر اسم (مصر) صريحًا في القرآن الكريم ٥ مرّات في ٥ آيات..

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ

أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ" (٦١) البقرة

"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) يونس

"وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) يوسف

"فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ"(٩٩) يوسف

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) الزخرف

تأمّلوا اسم (مِصْرَ).. إنه يبدأ بحرف مكسور في جميع حالاته.. تأمّلوا عظمة الخالق سبحانه وتعالى في نظم كتابه.. هذا النظم الذي لا يتوقّف عند مستوى الكلمة أو الحرف بل إلى ما هو أدنى من ذلك إلى مستوى حركة الحرف وحظّه من علامات التنقيط والتشكيل!

قد يتعجَّب بعضهم من قولنا إن المنظومة الرقمية القرآنية تقوم على

ما هو أدنى من الحرف، وقد يجدون صعوبة في التصديق بأنَّ مواقع علامات التشكيل في القرآن محسوبة بميزان! تأمّلوا الآية التي احتضنت (مِصْر) للمرّة الأولى في القرآن الكريم:

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ" (٦١) البقرة

في هذه الآية هناك ٤١ حرفًا مكسورًا، وحرف الميم المكسور في اسم (مِصْر) يأتي في منتصف هذه الحروف تمامًا ٢٠ حرفًا مكسورًا قبله و٢٠ حرفًا مكسورًا بعدها! ميزان رقمي عجيب مركزه حرف الميم المكسور في اسم (مِصْر)!

وتأمّلوا الآية التي احتضنت اسم (مِصْر) للمرّة الأخيرة في القرآن.. "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (٥١) الزخرف.. هناك ١٣ حرفًا مكسورًا في هذه الآية.. حرف الميم المكسور في (مِصْر) يأتي في منتصف هذه الحروف تمامًا، ٦ أحرف مكسورة قبله و٦ أحرف مكسورًا بعده!

سبحان الله! الدلالة ذاتها والميزان الرقمي ذاته، إنها رمانة الميزان!

للتأكيد.. تأمّلوا آية أخرى من الآيات التي ورد فيها اسم (مِصْر)..

تأمّلوا الآية رقم ٨٧ من سورة يونس.. "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (٨٧) يونس

في هذه الآية هناك ١٣ حرفًا مكسورًا.. نعم.. حرف الميم المكسور في اسم (مِصْر) يأتي في منتصف هذه الحروف تمامًا! ٦ أحرف مكسورة قبله و٦ أحرف مكسورة بعده، سبحان الله الميزان الرقمي نفسه! بل إن هناك ما هو أعجب من ذلك! لا تغادروا هذه الآية وتأمّلوا أين جاء حرف الميم المكسور في اسم (مِصْر)؟! لقد جاء في الوسط تمامًا.. ٣٣ حرفًا قبله و٣٣ حرفًا بعده! تذكّروا جيّدًا أن حرف الميم في اسم (مِصْر) مكسور على الدوام وفي جميع حالاته! وهذا الحرف المكسور هو مركز ميزان حركة الكسرة في جميع الآيات السابقة!

تأمّلوا هذه المرّة أقصر الآيات التي وردت فيها (مِصْر)..

"فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ" (٩٩) يوسف.. في هذه الآية هناك ٧ أحرف مكسورة.. وما يثير العجب حقًا أن هناك ٣ أحرف مكسورة قبل حرف الميم المكسور في اسم (مِصْر) و٣ أحرف مكسورة بعده!

سبحان الله!! تختلف الآية من حيث الطول والقصر ويتغيّر موقع (مِصْر) داخل الآية ويظل الميزان دقيقًا محكمًا! ألم أقل لكم إنها رمانة

الميزان؟!

تأمّلوا هاتين الآيتين:

"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاة وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) يونس

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) الزخرف في الآية الأولى هناك ٦ كسرات قبل ميم مِصْرَ المكسورة و٦ كسرات بعدها! في الآية الثانية هناك ٦ كسرات قبل ميم مِصْرَ المكسورة و٦ كسرات بعدها! تطابق تام بين آيتي يونس والزخرف برغم اختلاف موقع مصر في الآيتين! فهل يمكن لعاقل أن يظن أن كل ذلك أتى عرضًا من دون تدبير محكم؟!

ولكن.. أتعلمون لماذا توازنت الحروف المكسورة في الآيتين على الرقم ٦؟! لأن الفرق بين رقمي الآيتين ٨٧ – ٥١ يساوي ٣٦ ، أي ٦ × ٦ كما أن مجموع حروف الآيتين ١٥٠ حرفًا، وهذا العدد = ١١٤ + ٦ × ٦ ومجموع رقمي الآيتين ١٣٨، أي ٢٣ × ٦

١١٤ هو عدد سور القرآن و٢٣ هو عدد أعوام نزول القرآن! سبحان الله! تذكّروا أن مجموع الحروف المكسورة في آيتي يونس والزخرف ٢٦، ويساوي ١٣ + ١٣، كما أن حرف الميم تكرّر في الآيتين ١٣ مرّة! والعجيب أن ١٣ عدد أوّليّ ترتيبه في قائمة الأعداد الأوّليّة رقم ٦ والأعجب من ذلك أن أحرف (مِصْرَ) الثلاثة تكرّرت في

هاتين الآيتين ٢٤ مرّة! و٢٤ هو ترتيب حرف الميم في قائمة الحروف الهجائية! أرأيتم مثل هذه العلاقات الرقمية العنكبوتية المعجزة!.. هل بعد هذا من مجال للتشكيك في مصدر القرآن العظيم! تأمّلوا آية مصر الأولى في سورة يوسف..

"وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) يوسف.. في هذه الآية هناك ٢٥ كسرة، واسم يوسف يتكرّر في سورة يوسف ٢٥ مرة.. هل تعجبتم؟! فما بالكم لو علمتم أن أحرف "يوسف" تكرّرت في هذه الآية ٢٥ مرة أيضًا!

حرف الياء تكرّر في هذه الآية ٨ مرّات. حرف الواو تكرّر في هذه الآية ١١ مرّة. حرف السين تكرّر في هذه الآية ٣ مرّات. حرف الفاء تكرّر في هذه الآية ٣ مرّات. ميزان رقمي لا نظير لدقته! وبرغم هذه العجائب.. ما رأيكم لو زدنا الأمر تحدّيًا؟! فتأمّلوا.. كم عدد الكسرات التي وردت في آيات مصر الخمس في القرآن الكريم؟! هناك ٩٩ حرفًا مكسورًا ورد في آيات مصر الخمس.. إن رقم أقصر آية يرد فيها اسم مصر هو ٩٩

"فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) يوسف.. سبحان الله! تأمّلوا هذه العجائب الرقمية الباهرة حتى على هذا المستوى الدقيق من التشكيل!

برغم أن القرآن الكريم قد نزل ملفوظًا ولم يتم تشكيل حروفه إلا بعد عشرات السنين من انقضاء الوحي، وبين طيّات هذه الحقائق الرقمية الدامغة رسالة واضحة إلى المكابرين والمعاندين والمكذّبين. علّهم يتفكّرون في هذه الحقائق الرقمية الثابتة التي لا يمكن لأحد إنكارها أو ادعاء الجهل بمدلولها. ولعلّهم يستدركون قبل فوات الأوان ويدركون مصدر هذا القرآن ويؤمنون به.

سيناء ..أرض الوادي المقدس طوى

من الأماكن القليلة التى تحدث عنها القرآن الكريم وكانت موجودة قبل نزوله واستمرت بعده حتى الآن: مصر. ليس مصر فقط، بل هناك جزء خاص منها يحتل مكانة خاصة في الدين الإلهي، وتلك الأهمية الخاصة كانت قبل نزول القرآن الكريم، وصاحبت نزول القرآن الكريم، وستستمر بعده الى يوم الدين. هذه المنطقة هى سيناء.

"سيناء" ذلك الجزء الآسيوي من مصر شهد انتقال بعض الأنبياء من فلسطين إلى مصر، تذكر التوراة مسيرة إبراهيم خليل الله من الشام إلى مصر عبر سيناء، ويذكر القرآن الكريم رحلة يوسف وهو طفل اشترته قافلة وسارت به إلى مصر، كما يذكر استقبال يوسف لأبيه يعقوب عند الحدود الشرقية – أي سيناء – وقوله لأبويه وأهله: (وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ) (يوسف– ٩٩) ولكن ما ذكرته التوراة والمصادر المسيحية عن سيناء مع أهميته لا يعادل مكانة سيناء في القرآن الكريم، وتتجلى هذه الأهمية في قصة موسى عليه السلام وانعكاساتها على نزول القرآن الكريم مرة واحدة على قلب خاتم المرسلين في جبل الطور حيث كان المسجد الأقصى.

عن أهمية سيناء

يمكن أن نلمح هذه الأهمية في قوله تعالى في هذه السورة

الكريمة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فالله تعالى يقسم في بداية السورة بالتين والزيتون وهما من منتجات سيناء، ثم يقسم بجبل الطور وبنسبه إلى سيناء "وطور سينين" ثم يقسم بمكة البلد الأمين، والمعنى أن سيناء جاءت في الترتيب قبل مكة في موضوع يقسم به رب العزة على خلق الإنسان في أحسن تقويم، وما يحدث له بعدها حين يتحول الى أسفل سافلين، إلا من اعتصم بالوحى الإلهي الذي نزل في طور سيناء وفي مكة.

وأهمية سيناء تتلخص في مكان واحد هو جبل الطور، ولذلك انتسبت سيناء أو سينين إلى الطور "وطور سيناء"، وهي أهمية عالمية ترتبط بالإنسان نفسه، لذا جرى الربط بين خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم سقوطه في الأسفل إلا من آمن وعمل صالحا، والعبرة بالفلاح هي في اتباع الوحي الإلهي الذي بقي منه لنا ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن الكريم. وتأكد هذا الربط بالقسم الإلهي بسيناء وما تنتجه وبالبلد الأمين مكة المكرمة المشار إليه في قوله جل وعلا: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾.

ولم تأت كلمة (الطور) في القرآن الكريم إلا في الحديث عن طور سيناء، وقد تكررت الكلمة في القرآن الكريم عشر مرات، دار الحديث خلالها عن الوحي الأول لموسى، وفي أخذ العهد على بني اسرائيل ورفع جبل الطور فوقهم، ثم أهمية جبل الطور في سيناء وشجرة الزيتون المباركة فيه، مع الربط بين جبل الطور و(المسجد الأقصى) والبيت

المعمور أو المسجد الحرام.

وأسمى الله جبل الطور: طوى، ويأتي هذا الوصف ملحقا بوصف آخر للجبل، هو الوادي المقدس (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (طه ١٢) (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (النازعات ١٥: ١٦) والعجيب أن كلمة (جبل) جاءت في القرآن الكريم في ستة مواضع، ثلاثة منها جاءت نكرة، وثلاثة جاءت فيها معرفة تدل على جبل الطور فقط.

جاء نكرة في قصة إبراهيم حين طلب من ربه جل وعلا أن يريه كيف يحيي الموتى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) (البقرة ٢٦٠) وفي قصة نوح وغرق قومه المشركين وقول ابنه (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء) (هود ٤٣) وفي سياق الوعظ بالقرآن الكريم (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (الحشر ٢١) وكلمة الجبل هنا نكرة تدل على أي جبل.

ولكن الله جل وعلا حين يتكلم عن جبل الطور فإنه يجعل معرفا بالأف واللام، أي (الجبل المعروف المشهور)، وقد ورد هذا في ثلاث مرات في سورة الأعراف (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا

أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)، (وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأعراف ١٧١،١٤٣)

أي من بين جبال الكرة الأرضية ينفرد جبل واحد مبارك مشهور معروف شهد الوحي الإلهي لموسى، وشهد نزول الرسالة الإلهية والأخيرة للبشرية قبيل قيام الساعة.

هذا الجبل في مصر، بل يأتي التحديد بموضع معين في الجبل، وذلك في معرض التذكير بالجبل واللقاء الذي حدث عنده بترتيب رب العزة فيقول تعالى لبني إسرائيل: "(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ) (طه ٨٠) وجانب الطور الأيمن هو نفسه الذي قال فيه تعالى عن موسى (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) (مريم ٥٢) أي في ذلك الجانب الأيمن من جبل الطور كان أول وحي وحوار جرى بين موسى مع ربه جل وعلا، كما كان ذلك اللقاء الذي رفع الله جل وعلا الجبل فوق بني إسرائيل وأخذ عليهم فيه العهد والميثاق.

ويأتي التحديد بدقة أكثر في المكان الذي جرى فيه أول حوار بين رب العزة وموسى عليه السلام: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ

رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص٣٠:٢٩). التحديد الدقيق هنا في قوله تعالى (مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) أي كان موسى يسير بزوجه مارا بجبل الطور فرأى نارا تخرج من شجرة تلوح له من بعيد. الله جل وعلا يصف البقعة بأنها مباركة، وأنها في ناحية من الشجرة. وهذه البقعة المباركة، وذلك الوادي المقدس طوى هو أرض مصرية، لو كنتم تتذكرون..!!

وذلك المكان المقدس بالشجرة المباركة حرص القرآن على تحديده بدقة.. يقول تعالى: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" القصص ٣٠

ومع أن الله تعالى يكرر اسم جبل الطور، فإنه يشير إليه ضمنا باسم الجبل: (وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) أو باسمه (الطور) (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) أو باسم الوادي المقدس طوى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (طه ٩–) كما جاءت سورة كاملة باسم (الطور)

وفي سورة "الطور" نسبة لطور سيناء يقسم الله تعالى بالطور أو جبل الطور في سيناء فيقول: (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) وموضوع القسم هنا هو قرب قيام الساعة ومجيىء العذاب للمكذبين بوحي الله جل وعلا الذي نزل في جبل الطور على النبي موسى، ثم على قلب النبي محمد حين نزل القرآن كله كتابا مكتوبا مرة

واحدة على قلبه حين رأى جبريل بفؤاده، على نحو ما جاء تفصيله في بحث (ليلة الإسراء هي ليلة القدر في شهر رمضان)

يقول تعالى (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

ومع الربط بين جبل الطور والكعبة البيت المعمور إلا إن (الطور) مذكور قبل الكعبة البيت المعمور، والترتيب هنا يشير إلى أن الطور شهد نزول التوراة على موسى، ثم شهد نزول القرآن الكريم كتابا مكتوبا في قلب النبي محمد، وبعدها شهدت مكة فيما بعد نزول القرآن، متفرقا، على محمد عليهما السلام حسب الأحداث. وهو نفس الترتيب في سورة التين: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)

سيناء والوحي الإلهي

كانت سيناء المسرح الكبير لقصة موسى عليه السلام، عبرها إلى مدين هاربا من السلطات الفرعونية، ثم عاد إلى مصر ومعه زوجه. ثم بعد فصول من قصة موسى وفرعون انتقل موسى بقومه إلى سيناء حيث دار الفصل الأخير في ربوعها واحتضنت سيناء رفات موسى، وظل فيها، وحولها، بنو إسرائيل أربعين سنة يتيهون في الأرض.

ولقد تميز موسى عليه السلام بخصوصية الحوار مع رب العزة جل وعلا، يقول تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء)١٦٤، وكل هذا

التكليم أو الحوار بين موسى وربه جل وعلا جرى في أرض مصر فقط، بداية من الوحي إليه في سيناء وجبل الطور، مرورا بلقائه بقومه وصراعه مع فرعون إلى خروجه بقومه إلى سيناء ومشاكله مع قومه فيها، حيث ظل بها إلى أن مات، فلم يدخل موسى فلسطين أبدا بعد أن صار نبيا يوحى إليه. بل إن اسم مصر ورد في بعض هذا الوحي يؤكد وقوعه في أرض مصر، يقول جل وعلا (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) (يونس ٨٧)

ومن بين هذا الوحي (التوجيهى) نتوقف مع أربعة منها، كلها عند جبل الطور في سيناء: الوحي الأول حين ناداه ربه لأول مرة، ثم تلقى الألواح، ومجىء موسى بسبعين رجل من قومه للتوبة عند الطور فأخذتهم الرجفة، وأخيرا أخذ الميثاق عليهم حين رفع جبل الطور فوقهم.

لقد شهد جبل الطور في سيناء أول وحي مباشر من الله تعالى إلى رسول من رسله وهو موسى عليه السلام، ونزل ذاك الوحي بدون جبريل. في ذلك الوقت كان موسى عائدا بزوجته فرأى نارا بجانب شجرة تلوح من بعيد، فقال لزوجته امكثي هنا، وذهب إلى النار، وحين اقترب منها سمع كلام الله تعالى له، وفي ذلك يقول تعالى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وتتابع كلام الله جل وعلا لموسى (وَأَنْ

أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) وردّ موسى على ربه جل وعلا (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) وجاءه الرد من رب العزة (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص ٢٩)

نحن هنا أمام حوار بين الخالق جل وعلا ومخلوق من خلقه، وليس مجرد وحي من طرف واحد، وهذه الخصوصية للوادي المقدس طوى انعكست على مكانة موسى بين الأنبياء نلمح هذا من قوله تعالى عنه: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (مريم ٥١).

فالله تعالى يقول عن رسوله موسى أنه ناداه من جانب الطور الأيمن وقربه إليه يناجيه ويحدثه ويكلمه، وقوله تعالى "وقربناه نجيا" فيها من الحب ما فيها، وفي هذا الموقف استجاب الله تعالى لرغبة موسى فجعل معه أخاه هارون نبيا ووزيرا ليشد من أزره.

وشهد جبل الطور أيضا نزول ألواح أو كتاب التوراة حيث واعد الله جل وعلا موسى أربعين ليلة وفيها تلقى الألواح من الله، وجاءت

ثم كان جبل الطور مسرحا لأحداث أخرى جرى فيها الوحي الإلهي مع موسى. وكان هذا في الميقات الثاني الذي حضره بنو اسرائيل في جبل الطور. إذ بعد أن أخذ موسى الألواح عاد إلى قومه بني إسرائيل فوجدهم قد عبدوا العجل (نموذجا من عجل أبيس الفرعوني بسبب تأثرهم بالعبادات المصرية الفرعونية). وغضب موسى وفي ثورة غضبه كسّر الألواح وكاد أن يبطش بأخيه هارون الذي استخلفه عليهم في غيابه (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، ثم هدأ موسى (وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (الأعراف ١٤٨) وتعبيرا عن توبة بني اسرائيل اختار موسى من بينهم سبعين رجلا ذهبوا معه الى جبل الطور فأخذهم الله جل وعلا بالرجفة.

كما شهد جبل الطور إعطاء العهد والميثاق على بني إسرائيل، وفيه رفع الله جبل الطور فوق رؤوسهم فسجدوا لله تعالى رعبا وهم ينظرون إلى الجبل المرفوع فوقهم كأنه ظلة، وفي ذلك الموقف الرهيب أخذ الله عليهم العهد والميثاق، ويقول الله تعالى يصف ذلك الحدث (وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأعراف ١٧١)

ثالثا: الوحي الإلهي بين المسجد الأقصى في طور سيناء والمسجد الحرام.

ومن أبرز ملامح التجاهل لأهمية سيناء تلك المؤامرة التى جعلت مسجد الوليد بن عبد الملك في القدس هو المسجد الْأقصى، وتناست جبل الطور الذي سماه الله جل وعلا (طوى) وسماه (المسجد الأقصى)، وتجاهلت أن طور سيناء هو محل الاسراء حيث نزل القرآن الكريم في ليلة القدر مرة واحدة على قلب خاتم المرسلين. إذ بعد أن أخذ موسى الألواح عاد الى قومه بني إسرائيل فوجدهم قد عبدوا العجل، وتعبيرا عن توبة بني إسرائيل اختار موسى من بينهم سبعين رجلا، وأعدهم للقاء عند جبل الطور فأخذهم الله جل وعلا بالرجفة، وغضب موسى وانفعل كالعادة، ثم هدأ كالعادة: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) أي طلب موسى من ربه أن يكتب لهم حسنة في الدنيا، وجاء الرد من رب العزة (قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) في ذلك الحوار بين رب العزة وموسى عليه السلام أخبر الله جل وعلا مقدما بمجىء خاتم المرسلين بتلك الرحمة للعالمين، أي نزول القرآن الكريم نورا للعالمين (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف ١٥٠)

أي هي رحمة تفتح ذراعيها للعالمين جميعا (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء ١٠٧) ولكن لا ينالها إلا من آمن وعمل عملا صالحا، واتبع النور القرآني وتحقق وعد الله جل وعلا فكان فيما بعد بقرون أن حدث الاسراء بخاتم المرسلين من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في جبل الطور في سيناء، وتلقى محمد عليه السلام الكتاب في قلبه كما تلقى من قبل في نفس المكان موسى عليه السلام ألواح التوراة بيده، يقول جل وعلا يربط بين هذا وذاك: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) (الإسراء ١ : ٢) فهنا ربط بين الإسراء وبين إيتاء موسى الكتاب، والجامع بينهما جبل الطور والمسجد الأقصى فيه حيث توجد أطهر بقعة في الأرض، لو كنتم تعلمون.

ويتكرر هذا الربط في قوله جل وعلا عن نزول القرآن الكريم: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) بالآية التالية التي تتحدث عن موسى وأول وحي جرى له في نفس المكان في جبل الطور (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) ويأتي وصف هذا المكان بالبركة (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن

بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) (النمل ٦: ٨) أي فهو المسجد الأقصى (الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) أو الذي (بُورِكَ) فيه وما حوله، والذي رأى فيه موسى آيات الله من العصا ويده التى تخرج بيضاء من غير سوء (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)، (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) وتكرر هذا فيما بعد في نفس المكان مع خاتم المرسلين حين رأى من آيات ربه الكبرى (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) (الإسراء ١ : ٢) (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (النجم ١٨)

سيناء أرض الطهر والتقديس.. المجهولة

الله جل وعلا يصف منطقة الوحي في جبل الطور بأنها "بقعة مباركة" (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ)، وفي موضع آخر يصفها رب العزة جل وعلا بالوادى المقدس أي الذي تقدس وتطهر بذلك الحوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام، يقول تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (طه ٩) ولأن جبل الطور هو "الوادي المقدس طوى" فإن الله جل وعلا يأمر موسى بأن يخلع نعليه حين يدخله، لأن ذلك الوادي اكتسب قدسية بكلام رب العزة المقدس.

لقد واعد الله جل وعلا موسى أربعين ليلة وفيها تلقى الألواح من

الله، وجاءت التفصيلات في سورة الأعراف (١٤٢ : ١٤٧) وأثناء الحوار طلب موسى أن يرى ربه: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(الأعراف ١٤٣)

نحن هنا أمام ظاهرة فريدة جرت أحداثها فوق أرض مصرية في جبل الطور، حيث تجلى الله تعالى للجبل فجعله دكّا وخرّ موسى صعقا، ولم يحدث هذا في أى مكان في الكون إلا في مصر. وتكرر في القرآن تذكير بني إسرائيل بذلك الموقف شديد الخصوصية: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة ٦٣) ولكن أغلبهم ما لبث أن نقض العهد والميثاق، فقد تغلب على أكثرهم عبادة الذهب أو ما يرمز اليه العجل الذهبي الذي تشربت قلوبهم عبادته (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ) (البقرة ٩٣)، وبسببه تناسوا العهد والميثاق، بل تناسوا جبل الطور، وكان تركيزهم – ولا يزال – على هيكل سليمان الذي يرمز إلى الجاه والقوة، وانتقلت من بني إسرائيل للمسلمين عدوى النسيان وتجاهل سيناء والمسجد الأقصى فيها وجبل الطور والوادي المقدس طوى بسبب الإسرائيليات ومواويل وأغاني وأناشيد الإسراء والمعراج، فقد تبعهم المسلمون في تقديس المبنى المقام على هيكل سليمان المدعو زورا بالمسجد الأقصى، وتناسوا كل ما

ذكره لرب العزة عن سيناء المصرية وجبل الطور فيها.

شجرة الزيتون المباركة في جبل الطور في سيناء

ذلك المكان المقدس بالشجرة المباركة حرص القرآن على تحديده بدقة.. يقول تعالى: "فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين" القصص ٣٠، وتلك الشجرة التي شهدت وحي الله كانت شجرة زيتون. وأقسم الله تعالى بها "والتين والزيتون وطور سنين" وجعل الله تعالى فيها سرا وبركة اقتصادية يمكن أن نلمحها من قوله تعالى: "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين، وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون"

فهنا يتحدث الله تعالى عن خلق السماوات السبع والبشر وإنزال الماء من السماء وجنات النخيل والأعناب، وبعدها يقول تعالى: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين" المؤمنون ١٧– ٢٠ أي جعل شجرة الزيتون التي تنبت في جبل الطور في الوادي المقدس من نعم الله تعالى على الخلق شأن النعم التي سبقتها في الآيات. وجعل نعمة هذه الشجرة مستمرة متجددة شأن المطر والجنات والبساتين والسماوات السبع وجاء التعبير بالمضارع فقال: "وشجرة تخرج" "تنبت بالدهن". وأعتقد أن هناك خيرا اقتصاديا يكمن في زيتون سيناء، وإن هذا الخير الإلهي مستمد من ذلك الوادي المقدس الذي شهد وحده كلام

الله تعالى لأحد الأنبياء. وأن هذا الخير وضعه الله لكفاية البشرية "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين" ويلفت النظر هنا ماذا حدث لجبل الطور وهو يشهد كل تلك التطورات الإلهية، من رفع ودك، ولا يزال باقيا. كما يلفت النظر موقع جبل الطور في قصة بني آدم.

إن الله جل وعلا قد ضرب مثلا لنور الهداية في هذه الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ٣٥)

وهنا يذكر جل وعلا شجرة الزيتون السيناوية المباركة التى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار. وهنا ربط بين النور المعنوي (الهداية) وزيت الزيتون باعتباره طاقة لم يتم استغلالها بعد ضمن عناصر الطاقة المعروفة لدينا. وهو ربط يشير الى إعجاز عن سيناء و شجرة الزيتون في جبل الطور.

الفهرس